مغامرات شرلوك هولمز

سر الغواصة

للكاتب الكبير: سير آرثر كونان دويل



ترجمة : كمال أمين

مكتبة مدبولى

مغامرات شرلوك هولمز

سر الغواصة

للكاتب الكبير: سير آرثر كونان دويل

ترجمة : كمال أمين

مكتبة مدبولى



أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

سر الغواصة

التــأليـف : سير آرثر كونان دويل
ترجمـــة : كمال أمين
الطبعــة : الأولى عام 2009
النـاشـــر : مكتبة مدبولى 6 ميدان طلعت حرب – القاهرة
تليفون : 25756421 – فاكس : 25752854
البريد الإلكتـرونى: www.madboulybooks.com
Info@madboulybooks.com
رقـم الإيـداع : 2008/00000
الترقيم الـدولى :977-208-000-0

النـاشر
مكتبة مدبولى
2009



الفصل الاول

شقيق شرلوك هولمز

فى الأسبوع الثالث من شهر نوفمبر غشيت (لندن) سحابة كثيفة من الضباب .

ومرت ثلاثة أيام .. من الإثنين إلى الخميس .. استحال علينا فيها أن نتبين من نوافذ منزلنا فى « شارع بيكر » أسطح البيوت المجاورة .

وأمضى هولمز اليومين الثانى والثالث فى كتابة بحث مطول عن الموسيقى فى القرون الوسطى إذ كان ولوعًا بدراسة الموسيقى .. والاستماع إليها .

وحين أقبل اليوم الرابع .. ورأينا أن ستار الضباب الكثيف لا يزال يغمر الأرض والجو .. لم يعد فى طاقة هولمز أن يروض نفسه على الصبر داخل المنزل .. وبرم بالحياة الجامدة .. الراكدة .. فأخذ يذرع قاعة الاستقبال جيئة وذهابًا .. وقد ثارت فى نفسه الرغبة فى العمل والكفاح .

وراح ينقر على المقاعد تارة .. والموائد تارة أخرى فى حركة عصبية .. كأنما يخفف بهذه الحركات عما يجيش فى نفسه من ضيق .. وملل .

وأخيرًا سألنى فى لهفة :

- أليس فى الصحف يا واطسن ما يبعث على الاهتمام ؟

كان يعنى بالطبع أخبار الجرائم .. فالأخبار السياسية لم تكن تهمه إلا قليلاً .. والاضطرابات الثورية لم تكن تحرك فى نفسه شيئًا من الاهتمام .

وكانت الصحف.. فى ذلك العهد .. حافلة بمثل هذه الأخبار التى لم يكن هولمز يلقى بالاً لها .

وأما أنباء الجرائم .. فلم يكن منها إلا التافه .. الضئيل الشأن الذى لا يبالى به المرء .

فلما أفضيت بهذا إلى هولمز زمجر .. وقرض على أسنانه حنقًا .. ورجع يتمشى جيئة وذهابًا فى القاعة .

ثم التفت نحوى .. وقال فى لهجة الرجل الرياضى الذى أخطأه التوفيق فى لعبة مهمة يقوم بها :

- لعمرى إن المجرم الإنجليزى رجل كسول .. لا يعرف كيف يغتنم الفرصة السانحة .. أرسل بصرك من النافذة يا واطسن .. وانظر كيف تتراءى أشباح الناس فى الطريق غامضة .. غير واضحة .. يشتملها الضباب المعتم .

إن اللص أو القاتل يستطيع .. فى مثل هذا الجو .. أن يجوب (لندن) متسترًا .. منزويًا .. شأن الفهد فى الغابة المظلمة لا يراه أحد .. حتى يثب من أحشاء الظلام .. وينقض على فريسته .. فكيف .. كيف يفلت أى مجرم أحمق هذه الفرصة النادرة .. ويظل قابعًا فى داره !!

فقلت له موضحًا :

- فى الصحف أنباء سرقات كثيرة .. ولكنها صغيرة .

فزمجر هولمز فى احتقار .. وقال :

- هذا الستار المظلم لم يسدل على الأرض لكى ترتكب خلفه سرقات صغيرة .. إنه أعظم شأنًا من ذلك .. ومن حسن حظ المجتمع أن الله لم يخلقنى مجرمًا !!

فقلت له فى إيمان تام :

- هذا صحيح يا صديقى .. هذا صحيح .

فاستطرد فى حماس وانفعال :

- لنفرض أنى كنت « بروكس » أو « ودهاوس » أو « مورايانى » .. أو أى شخص من هؤلاء الخمسين الذين يهمهم أن يفتكوا بى .. ويتخلصوا من مطاردتى لهم .. ورغبتى فى القضاء

عليهم .. لنفرض أني كنت واحدًا منهم .. فإلى متى يا ترى يطول فرارى من شرلوك هولمز ؟
كان حسبى .. لو أنى كنت مجرمًا .. أن أخدع الشرطى السرى الذى يطاردنى .. فأستدرجه إلى الخروج فى يوم كهذا .. يسوده الضباب .. أو أترصد خطواته .. فإذا ما غادر داره .. وثبت عليه .. وفتكت به .. وفررت .. فى أقل من لمح البصر .. متسترًا بالضباب .
ثم تنهد وقال :
- لكن لنحمد الله على أنى لا أعيش فى تلك البلاد اللاتينية التى يعمد المجرمون فيها إلى سفك دماء متعقبيهم فى غير تردد أو هوادة .. ولنحمد الله مرة أخرى على أنه زودنا «بشىء» ينقذنا من هذا الخمول المتواصل !!

« « «

وكان هذا « الشىء » عبارة عن برقية حملتها إلينا الخادمة ففضها هولمز .. وقرأها بإمعان .. ثم قهقه ضاحكًا .. وقال :
- هذا بديع .. هذا بديع .. ليت شعرى .. ما الذى تدخره لنا الأقدار فى طوايا الغيب .. إن أخى مايكروفت قادم لزيارتى !!
فقلت فى شىء من الاستغراب :
- وأى عجب فى أن يزور الأخ أخاه ؟
فقال مؤكدًا :
- أى عجب ؟ إن فى زيارته لى كل العجب .. إنه أشبه بمسير الترام فى شارع فى قلب الريف .. ومايكروفت كالترام .. له قضبان يسير عليها .. ولا يحيد عنها .
منزله فى « بول مول » .. ناديه فى « ديوجين » .. مكتبه فى « هوايت هول » .. هذه هى دائرة حياته التى لا يخرج عنها .. وما زارنى إلا مرة واحدة .. ولسبب عظيم .. فليت شعرى ما الذى دفعه فى هذه المرة إلى الخروج عن القضبان لكى يحضر إلى زيارتى ؟
فسألته فى فضول :
ألم يضمِّن برقيته شيئًا معينًا ؟
فناولنى هولمز البرقية .. فتلوتها .
وكان هذا نصها :
« يجب أن أقابلك بشأن كادوجان وست »
« سأحضر فورًا - مايكروفت هولمز »

« « «

قلت متسائلاً :
- كادوجان وست ؟ .. لقد سمعت بهذا الاسم من قبل !!
فأجاب هولمز بغير اكتراث :
- أما أنا فلا أذكر من أمره شيئًا .. ولكن لابد أن يكون لهذا الاسم شأن عظيم .. فقد يتحرك الجبل الراسخ من مكانه .. ولا يتحرك مايكروفت .. وبهذه المناسبة أتعرف ياترى العمل الذى يزاوله أخى مايكروفت ؟
وكان هولمز قد سبق أن أشار إلى عمل أخيه فى الدوائر الحكومية إشارة وجيزة .. مقتضبة بمناسبة « قضية المترجم اليونانى » ..
فقلت له :

- لقد أنبأتنى أنه يدير مكتبًا صغيرًا تحت إشراف الحكومة البريطانية .
فضحك هولمز .. وقال :
- فى ذلك العهد كانت معرفتى بك محدودة .. حديثة .. فاعتصمت بالتكتم وأنا أتحدث فى سياسة الدولة العليا .. ولكنك على حق إن اعتقدت أن مكتبه تحت إشراف الحكومة البريطانية .. بل إنك لن تسرف فى القول إذا قلت بكل ثقة إن أخى مايكروفت هو الحكومة البريطانية !!
فهتفت فى دهشة بالغة :
- عجبًا .. ما هذا الكلام يا هولمز ؟
فابتسم ابتسامة عريضة .. واستطرد قائلاً .
- كنت أعرف أن الأمر سيدهشك .. إن مايكروفت يتناول ثلاثمائة روبية مرتبًا شهريًا .. وسيظل طوال حياته مرؤوسًا لا رئيسًا .. ليس له مطمح من أى نوع كان .. ولن تكلل هامته أكاليل الغار .. ولن ينعم عليه بالألقاب الرفيعة .. ولكنه .. رغم كل ذلك .. سيظل دائمًا .. الرجل الذى لا يمكن أن تستغنى عنه البلاد من أقصاها إلى أقصاها .
قلت وقد ازداد عجبى :
- ولكن كيف ؟ كيف ؟
ففكر لحظة .. ثم قال موضحًا :
- إن منصبه فذ .. فريد من نوعه .. خلقه لنفسه .. وما كان له مثيل من قبل .. ولن يكون !!
- إن مايكروفت يمتاز بمخ منظم وله قدرة نادرة على استظهار الوقائع .. وتنسيقها .. وهى ميزة لا يجاريه فيها إنسان فى هذه البلاد .
ونفس المواهب العظيمة .. الرائعة التى حبانى بها الله فاستخدمتها فى التحليل والاستنتاج .. استخدمها هو فى التنسيق .. والترتيب .. وأداء عمله العظيم .. إن نتائج عمل كل مصلحة من المصالح تعرض عليه .. فيكون منها بمثابة المركز الرئيسى للتجمع والتحويل !!
إنه بمثابة « بنك التصفية » بين البنوك .. أى البنك الذى تجتمع فيه كل العمليات المتشعبة .. فيصفيها .. ويضع لها الميزانية النهائية الصحيحة التى لا يأتيها الشك من أمام أو من خلف .
جميع الرجال الآخرين أخصائيون فى مهنتهم .. أما مايكروفت فهو العالم بكل شىء .. المحيط بكل ما يجرى فى المصالح المختلفة .. والمؤسسات العديدة .
قلت وقد أذهلنى حديثه :
- هذا غريب حقًا ؟
فاستطرد يقول وقد لذ له أن يدهشنى :
- لأضرب لك مثلاً يوضح ما أقول .. لتفرض أن وزيرًا معينًا طلب بيانات لها صلة بالأسطول .. والهند .. وكندا .. ونظام إصدار الأوراق المالية .. ففى وسع هذا الوزير أن يتزود بهذه البيانات من شتى المصالح .. والأقسام المختلفة .. كل على حدة .. وهنا يتقدم مايكروفت ليركزها .. ويمزج بينها .. ويخلق فى النهاية .. من جميع هذه البيانات .. مزيجًا جديدًا .. معدًا جيدًا .. هو الخلاصة الكاملة .
وفى مبدأ الأمر يستخدمون مايكروفت .. وينتفعون بخبرته .. على اعتبار أنه كفيل بتهوين العمل لديهم .. وتخفيف المتاعب عليهم .. ثم انقلب الأمر .. فاستطاع أن يجعلهم يشعرون بأن عمله جوهرى لابد منه .. ولا استغناء عنه .

إن مخه العظيم الرائع أشبه بعيون الخطايات .. لكل موضوع عين خاصة .. فإذا هو فى ذهنه منسق .. مرتب .. لا يختلط بسواه .. وكم من مرة كانت كلمته هى الكلمة العليا فى سياسة الدولة .
إنه غارق إلى أذنيه فى الأسرار العليا .. لا يفكر إلا فيها . ولا يشرد ذهنه عنها .. إلا حين أذهب إليه فأستعين به على حل إحدى معضلات الجرائم .. إذ يجد فى هذا التفكير الجديد لونًا من ألوان التسلية .. والترويح عن النفس .
ولكن .. ها هى ذى الشمس تنتقل من مكانها .. وتهبط إلينا .. فليت شعرى .. ما الذى أثار الزوبعة ؟ .. ومن هو « كادوجان وست » هذا ؟
وما علاقته بمايكروفت ؟

« « «

ساد الصمت لحظة بيننا .. انشغل فيها هولمز بإعداد غليونه .. وتبغه .. وفجأة أسعفتنى ذاكرتى بخصوص اسم « كادوجان وست » فهتفت قائلاً :
- لقد تذكرت الآن كل شيء عن كادوجان وست .. إنه ذلك الشاب الذى وجد قتيلاً على قضبان السكك الحديدية فى يوم الثلاثاء الماضى .
فاعتدل هولمز فى جلسته .. وأشعل غليونه .. ثم قال :
- لا ريب أن للأمر خطورة عظيمة يا واطسن .. إن الميتة التى تجعل أخى يغير من طباعه .. وعاداته .. لابد أن تكون ذات شأن خطير .. ولكن الذى يدهشنى حقًا هو ما العلاقة التى تربط مايكروفت بهذا الشاب ؟
إنى أذكر أن الحادث بدا فى نظرى عاديًا .. لا لون له .. إذ ظهر أن الشاب سقط من القطار فمرت عليه العجلات .. ومزقته .. وليس هناك أى أثر يدل على العنف .. أو السرقة .. أليس كذلك ؟
فقلت له مجيبًا :
- ولكن التحقيق كشف عن وقائع جديدة .. وإذا نحن أمعنا النظر فى هذه الوقائع بدت لنا القضية ذات طابع غريب .
فقال هولمز مؤمنًا على كلامى :
- هذا طبيعى مادام لها هذا الأثر على أخى .
ثم جلس على المقعد الكبير الوثير .. وأرخى جسمه فى ارتياح .. ثم قال لى :
- والآن يا واطسن .. حدثنى بوقائع المأساة .

« « «

قلت وأنا أسترجع ما أعرفه من معلومات عن هذه القضية :
- هذا الشاب يدعى آرثر كادوجان وست .. وهو فى السابعة والعشرين من العمر .. وغير متزوج .. ومهنته كاتب فى (مصانع السلاح) فى (ولويتش) .
- إذن فهو موظف حكومى .. وهذه أول رابطة تجمعه بأخى مايكروفت .
واستطردت قائلاً :
- وفى مساء يوم الإثنين غادر (ولويتش) فجأة .. وكانت خطيبته الآنسة فيوليت وستبرى آخر شخص رآه .. فقد تركها فجأة وسط الضباب فى الساعة السابعة والنصف مساء تلك الليلة .. ولقد كانت علاقاتها به ودية .. ولم يشجر بينهما أى خلاف .. فليس فى وسعها أن تبرر فعلته .. ولم

يسمع عنه أحد شيئًا بعد ذلك .. حتى وجدت جثته على قضبان « سكة حديد لندن » .. تحت الأرض .. خارج « محطة أولدجيت » .. أما مكتشف الجثة فعامل يدعى ماسون .

فسأل هولمز فى اهتمام :

- ومتى اكتشفت الجثة ؟

- وجدت الجثة فى الساعة السادسة من صباح يوم الثلاثاء وكانت ملقاة على الأرض .. بعيدة عن القضبان .. إلى يسار الخط الحديدى المتجه إلى الشرق .. عند نقطة قريبة من المحطة .. حيث يخرج الخط من النفق .

وكان الرأس مهشمًا تمامًا .. ويدل شكل الإصابة على أنها ناشئة عن سقوط من القطار وهذا هو التعليل الوحيد لوجود الجثة فى هذا المكان .. فلو أنه جىء به من شارع قريب لكان من المحتم المرور من بوابات المحطة .. حيث لا يكف جامعو التذاكر عن مراقبة الأبواب لحظة واحدة وهذا التفسير يعد تفسيرًا مؤكدًا .

فقال هولمز :

- حسنًا جدًا .. إن القضية واضحة حسب هذه الوقائع .. فالرجل مات بسبب سقوطه من القطار .. وقد يكون هذا السقوط عمدًا .. أو عفوًا .. استمر من فضلك .

فقلت مستطردًا :

- إن القطارات التى تمر على القضبان التى وجدت الجثة إلى جوارها هى القطارات القادمة من الغرب .. إلى الشرق وبعضها خاص بمنطقة العاصمة .. وبعضها قادم من « ويلسدون » .. والمحطات الفرعية الأخرى .. ويمكن أن يقال على وجه التأكيد .. بأن الشاب .. حين لقى حتفه .. كان متجهًا إلى هذا الاتجاه .. فى ساعة متأخرة من الليل .. ولكن الشىء الذى لا يزال مجهولاً .. لم يقطع فيه البوليس برأى .. هو المحطة التى ركب منها الشاب .

فقال هولمز معترضًا :

- ولكن تذكرته كفيلة بإظهار الحقيقة .

- لم تكن فى جيوبه تذكرة .

- عجبًا .. ألا يبدو اختفاء التذكرة غريبًا فى نظرك يا واطسن .. إننى أستطيع أن أقول .. استنادًا إلى تجربتى الشخصية .. إنه من المستحيل الوصول إلى الرصيف الداخلى بدون تذكرة .. فمن المؤكد إذن أن الشاب قد حمل تذكرته معه .. فهل انتزعت منه لإخفاء اسم المحطة التى ركب منها ؟ هذا فرض محتمل .. أم سقطت منه عفوًا أثناء وجوده فى القطار ؟ هذا محتمل أيضًا .. وهذا البحث طريف كما ترى .. ومثير للاهتمام .. حسنًا .. أليس هناك أى أثر يدل على وقوع سرقة ؟

- نعم وهناك قائمة بالأشياء التى وجدت فى جيوب القتيل .. كيس يحتوى على جنيهين وخمسة عشر شلنًا .. دفتر شيكات على « بنك ولويتش » فى العاصمة بكل فروعه .. وكان دفتر الشيكات هو الوسيلة إلى التعرف على شخصيته .. وكان فى جيبه أيضًا تذكرتان لمشاهدة التمثيل فى « مسرح ولويتش » فى نفس ذلك المساء .. كذلك كانت فى جيوبه أوراق بها تصميمات سرية .

فهز هولمز رأسه هزة تدل على الارتياح وقال :

- ها نحن قد عثرنا أخيرًا يا واطسن على ما ننشد .. الحكومة البريطانية .. ولويتش .. مصانع السلاح .. تصميمات سرية .. أخى مايكروفت .. لقد انتظمت الحلقة .

وأرسل بصره عبر النافذة .. ثم استطرد قائلاً فى ابتهاج :

- هو ذا أخى قد حضر لينبئنا بما يعلم .

الفصل الثانى

سر الغواصة الرهيبة !

بعد لحظات دخل علينا مايكروفت هولمز بقامته المديدة .. وقوامه الممشوق .

كان فى منكبيه العريضين .. المبسوطين .. ما ينبئ بالقوة .. ومتانة العضلات .

وكان فى جبهته العريضة .. وعينيه النفاذتين .. العميقتين .. وشفتيه المتصلبتين .. ما يدل على العزم .. والتصميم ..

أما تعبيرات وجهه .. فكانت ناطقة بالمكر .. والدهاء .. فلا تلبث حين تنظر إليه أن تنسى الجسم الضخم .. العملاق .. ولا تعود تذكر إلا العقل المسيطر .. الجبار .

وفى إثره رأينا صديقنا ليستراد المفتش بإدارة «سكوتلانديارد» .. بوجهه النحيف .. وجسمه الضئيل .

وكان فى وجهالرجلين ما يوحى بأنهما حضرا من أجل أمر خطير .

« « «

وصافحنا المفتش ليستراد دون أن ينطق بكلمة واحدة .

أما مايكروفت هولمز .. فنزع عنه معطفه .. وتهالك على أحد المقاعد وهو يقول بصوته القوى :

- حادث مزعج يا شرلوك .. إنك تعلم مبلغ كراهيتى لتغيير عاداتى والخروج عنها .. ولكن الأثر الذى يمكن أن يترتب على هذا الحادث يستحيل أن يغفل أو ينكر .. وما كان لى بحال من الأحوال أن أزايل مكتبى لكن الحادث الذى نحن بصدده قد يفضى إلى أزمة خطيرة .. وما رأيت رئيس الوزراء من قبل .. أشد قلقًا مما رأيته اليوم .. أما وزارة البحرية فقائمة على قدم وساق .. ألم تقرأ تفاصيل الحادث ؟

فأجاب هولمز وهو ينحى غليونه جانبًا :

- سمعتها الآن توًا من واطسن .. فما هذه التصميمات السرية التى وجدت مع القتيل ؟

فهتف مايكروفت :

- ذلك هو جوهر المسألة .. ولحسن الحظ تكتموا النبأ فلم يبلغ الصحف .. وإلا أثارت الرأى العام علينا .. إن التصميمات السرية التى وجدت فى جيب ذلك التعس إنما هى تصميمات « غواصة بروس بارنجتون » .. أو « الغواصة الرهيبة » كما يطلقون عليها .

« « «

كان مايكروفت هولمز يتكلم فى اهتمام يدل على خطورة الأمر .

ولبث أخوه يرقبه صامتًا .. فسأله مايكروفت :

- ألم تسمع من قبل عن هذه الغواصة ؟ كنت أظن أن الدنيا بأسرها قد سمعت بموضوع « الغواصة الرهيبة » .

فقال هولمز :

- سمعت عنها عرضًا .

فاستطرد مايكروفت فى حماس وانفعال :

- إن لهذه « الغواصة الرهيبة » أهمية من الوجهة الحربية والحكومة تحرص على كتمان سرها أشد الحرص .. ويمكننى أن أؤكد لك أن الاعتداء على الأسطول يمكن أن يصبح شبه مستحيل إذا ما استعنا بهذه الغواصة فى الدفاع عن سلامته .

ومنذ عامين أنفقت الحكومة مبلغًا طائلاً لشراء تصميمات هذه الغواصة .. واحتكار الاختراع لنفسها .

ولم تدخر وسعًا فى صيانة جميع التجارب بالكتمان .

وتتكون التصميمات من ثلاثين نموذجًا منفصلاً .. وكل منها ضرورى .. لا غناء عنه لاستكمال بناء الغواصة .

وهذه النماذج محفوظة فى خزانة بالغة المتانة .. موضوعة فى غرفة ملحقة بمصانع السلاح .. ومزودة أبوابها ونوافذها بأجراس للإنذار ضد سطو اللصوص .

وبلغ من شدة حرص الحكومة على التكتم .. والمحافظة على سر الغواصة .. أنها أمرت رئيس مهندسى البحرية بألا يتسلم صورة من هذه التصميمات عند بنائها.. وأن عليه - إذا شاء - الرجوع إليها فى المكتب الخاص بها فى مصانع السلاح .

وعلى الرغم من كل هذه الاحتياطات .. عثرنا على هذه التصميمات فى جيب القتيل .. وهو طريح على قضبان السكة الحديدية فى قلب لندن .. فالمسألة - كما ترى - فى منتهى الخطورة .

فقال شرلوك هولمز :

- وهل استعدتم الأوراق ؟

- كلا يا شرلوك .. كلا وهذه هى المشكلة الكبرى .. إننا لم نستعد الأوراق كلها .. فقد كانت الأوراق التى أخذت من (ولويتش) عشرًا .. ولكننا لم نعثر فى جيوب كادوجان وست إلا على سبع .. والأوراق الثلاث التى اختفت هى أهمها .. وأخطرها .. فأرجوك يا شرلوك أن تتفرغ لهذا العمل .. اترك أعمالك الأخرى كلها .. ولا تقم وزنًا لقضاياك البوليسية «الضئيلة الشأن» .. إن المهمة الملقاة على عاتقك الآن ذات خطورة دولية .. فعليك أن تميط اللثام عن هذا اللغز .

لماذا أخذ كادوجان وست هذه الأوراق ؟

وأين الأوراق الناقصة ؟

وكيف مات ؟

وكيف وجدت جثته حيث كانت ؟

وكيف يمكن تلافى الشر .. ورد الأمور إلى نصابها ؟

ابحث يا شرلوك عن جواب شاف لهذه الأسئلة لتؤدى لبلادك خدمة جليلة .

فنفث شرلوك هولمز دخان غليونة ببطء .. ثم قال :

- لم لا تحل هذا اللغز بنفسك يا مايكروفت .. ومواهبك ليست دون مواهبى ؟

فضحك مايكروفت وأجاب :

- فى مقدورى أن أفعل ذلك يا شرلوك .. ولكن جمع المعلومات هو أساس البحث .. زودنى بهذه المعلومات .. وأنا الكفيل بأن أرشدك برأى سديد وأنا جالس أمام مكتبى ... أما أن تطلب منى أن أذهب هنا .. وهناك .. وأستجوب حراس السكة الحديد .. وأنطرح فوق الأرض .. على وجهى .. وتحت عينى عدسة مكبرة .. فهذا عمل لا يلذ لى .. ولا أجيده فضلاً عن ذلك .. لا يا شرلوك .. إنك الرجل الوحيد الذى يصلح لهذه المهمة .. فإذا أحببت أن ترى اسمك تعلوه أكاليل الغار ... و ....

فابتسم هولمز .. وهز رأسه .. وقال مقاطعًا :

- ألا تعلم يا مايكروفت أنى رجل لا أتولى قضية إلا إذا طاب لى العمل فيها ؟ مهما يكن من الأمر فإن هذه القضية تعجبنى وفيها ما يستثير الاهتمام .. وسيروق لى أن أتولى دراستها فهل لك

أن تزودنى ببعض الحقائق ؟
فقال مايكروفت :
- لقد دونت جميع الحقائق الجوهرية فى هذه الورقة مع بعض عناوين وأسماء قد تكون ذات نفع لك .
إن الحارث الرسمى الحالى للتصميمات هو سير جيمس والتر خبير الحكومة البريطانى الشهير .
وهو رجل من كبار العلماء .. وألقابه العلمية والفخرية .. والأوسمة الرفيعة التى نالها تشغل سطورًا غير قليلة فى (الدليل العام) .
وقد أمضى حياته فى خدمة الحكومة حتى أدركه المشيب . وهو .. فضلاً عن ذلك .. رجل شهم .. نبيل .. ووطنيته فوق مستوى الشبهات .
والسير جيمس أحد رجلين كل منهما يحمل مفتاحًا للخزانة .. وأستطيع أن أؤكد لك أن الأوراق كانت فى الخزانة أثناء ساعات العمل فى يوم الاثنين .. وفى الساعة الثالثة بعد الظهر غادر سير جيمس مكتبه ذاهبًا إلى (لندن) والمفتاح فى جيبه .. وأمضى السهرة كلها فى منزل الأميرال سنكلر فى «ميدان باركى» .. وفى غضون ذلك المساء وقع الحادث ..
- وهل تحريتم عن حقيقة وجوده عند الأميرال ؟
نعم .. وقد شهد الكولونيل فالنتين والتر بأن أخاه سير جيمس غادر (ولويتش) فى الموعد الذى ذكره .. كما شهد الأميرال سنكلر بأنه أمضى السهرة عنده .. وأيد موعد وصوله إلى (لندن) .. فيمكننا .. استنادًا إلى هذه الشهادات .. أن نعتبر سير جيمس ليس عاملاً مباشرًا فى الحادث .
فسأله شرلوك هولمز :
- ومن الذى يحمل المفتاح الثانى للخزانة ؟
- رئيس الكتبة مستر سيدنى جونسون .. وهو فى الأربعين من العمر .. متزوج .. وذو خمسة أطفال .. وهو رجل صموت .. محب للوحدة .. وله فى خدمة الحكومة سجل ناصع .. أما زملاؤه فيمقتونه لصلفه وحدته .. وقد قرر أنه أمضى مساء يوم الإثنين فى داره بعد أن غادر مكتبه .. وأيدته زوجته فى ذلك .. أما مفتاح الخزانة فقال إنه يعلقه عادة فى سلسلة ساعته .. وأنه ظل فى مكانه هذا .
- حدثنى إذن عن كادوجان وست .
- لقد أمضى فى الخدمة عشرة أعوام .. وأحسن أداء عمله .. والمأثور عنه أنه شاب نزيه .. أمين .. وإن كان سريع الغضب .. لا يملك التسلط على أعصابه .. وليس لدينا ما يؤخذ عليه .. وهو بمثابة وكيل لرئيس الكتبة .. وعمله يقتضى منه اتصالاً يوميًا مستمرًا بتصميمات الغواصة .. ولا يسمح لسواه من الكتبة بتداول هذه التصميمات .
- ومن الذى وضع رسوم التصميمات فى الخزانة تلك الليلة؟
- مستر سيدنى جونسون رئيس الكتبة .
- إذن ليس ثمة أى غموض فى معرفة شخصية الرجل الذى أخذ الأوراق مادامت قد وجدت فعلاً فى جيوب كادوجان وست .. أليس الأمر واضحًا بما فيه الكفاية .
فأجابه مايكروفت قائلاً :
- هذا صحيح يا شرلوك .. إن الأمر واضح تمام الوضوح .. ولكنه مع ذلك لا يزال غير واضح .. فأولاً : ما الذى حمل كادوجان وست على أخذ أوراق التصميمات ؟
- أظنها ذات قيمة مالية ؟

- فى وسعه أن يبيعها بكل سهولة ببضعة آلاف من الجنيهات .
- أيمن أن يكون هناك سبب آخر حمله على الذهاب بها إلى (لندن) .. عند اعتزامه بيعها ؟
- لا أدرى .. إن فكرة البيع هى الفكرة المبدئية التى تجرى بالخاطر .
- علينا إذن أن نتخذ هذا الفرض أساسًا لبحثنا .. لقد أخذ كادوجان وست الأوراق .. فكيف استولى عليها ؟ لا ريب أنه استعمل مفتاحًا مصطنعًا .
- بل عدة مفاتيح مصطنعة .. إذ لابد له أن يفتح الباب العمومى .. فباب الغرفة .. ثم باب الخزانة .
- إذن فعنده بلا ريب عدة مفاتيح مصطنعة .. ولابد أنه أخذ الأوراق إلى لندن ليبيع السر .. وكان ينوى - فيما يبدو - أن يردها إلى الخزانة فى صباح اليوم التالى .. قبل أن يلحظ أحد اختفاءها .. ولكنه لقى حتفه قبل أن يبلغ غرضه .
- ولكن كيف لقى حتفه ؟
فقال شرلوك هولمز :
- لنفرض أنه قد قتل أثناء عودته فى القطار إلى (ولويتش) .. وألقيت جثته من المركبة على القضبان .
فقال مايكروفت معترضًا :
- ولكن محطة أولد جيت - حيث وجدت الجثة - تقع على غير الطريق المؤدية إلى (ولويتش) .. إذ إن « محطة جسر لندن » هى نقطة التحول .. فلماذا تابع طريقه إلى «محطة أولد جيت» ؟
- وهناك عدة احتمالات يمكن أن تخطر بالبال لتبرير عدم تحوله إلى (طريق ولويتش) .. فيمكننا أن نفترض مثلاً أنه كان منهمكًا فى الحديث مع شخص يشاطره المركبة .. فلم يفطن إلى « محطة التحويل » .. أو تجاوزها متعمدًا فى طريقه إلى « محطة أولد جيت » مع صاحبه حتى لا يقطع الحديث .
وهناك احتمالان آخران يترتبان على هذا الفرض .. أولهما : أن الحديث انتهى بشجار عنيف أفضى إلى موته .. ثم إلقائه من القطار .
وثانيهما أنه حاول مغادرة المركبة .. فسقط بين الخطوط ومات لساعته .. فأغلق خصمه الباب . وكان له فى الضباب الكثيف ما ألقى على ما حدث ستائر من الكتمان .
فقال مايكروفت هولمز مؤمنًا :
- هذا يا شرلوك تفسير سديد لما وقع .. فى حدود الوقائع القليلة التى لدينا .. ولكنك مع هذا تركت بعض الأمور مستغلقة .. غامضة .. فلنفرض جدلاً أن كادوجان اعتزم أن يذهب بالأوراق إلى (لندن) لبيعها .. فلا شك أنه ضرب موعدًا لمقابلة «الجاسوس الأجنبى» ولا شك أنه حرص على أن يظل طليقًا طيلة المساء .. ولكنه بدلاً من هذا يحجز لنفسه .. ولخطيبته مقعدين فى المسرح .. ويصحبها نصف الطريق .. ثم يتركها بغتة .. ويختفى فى أحشاء الضباب .
وتدخل المفتش ليستراد لأول مرة فى الحديث .. فقال معللاً تلك النقطة :
- ربما عمد إلى ذلك على سبيل التضليل .
- فى هذه الحالة تكون خدعته من نوع سخيف .. وعجيب.
هذا هو الاعتراض الأول .. أما الاعتراض الثانى .. فيمكن أن نفترض أنه وصل إلى لندن .. وقابل الجاسوس الأجنبى .. فكان عليه أن يرد الأوراق إلى مكانها قبل أن تكتشف سرقتها فى الصباح .

لقد سرق عشر أوراق .. ولكننا لم نجد فى جيبه إلا سبعًا .. فأين ذهبت الثلاث الناقصة ؟

من المؤكد أنه لم يتخل عنها بمحض إرادته .. وهنا يجب أن نتساءل عن ثمن الخيانة .. وأين اختفى ؟

لقد كنا نتوقع أن نجد فى جيبه رزمة كبيرة من الأوراق المالية !

فقال المفتش ليستراد :

- إن الأمر فى نظرى من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شىء من التساؤل .. لقد ذهب بالأوراق إلى لندن لبيعها .. وقابل الجاسوس .. فلم يتفقا على الثمن .. فرجع إلى داره والجاسوس فى رفقته .. وفى أثناء ركوبهما القطار قتله الجاسوس .. واستولى على الأوراق الأكثر أهمية .. وألقى بالجثة من المركبة .. ورجع إلى داره آمنًا .. مطمئنًا .. إن هذا التعليل - فيما أرى - يشتمل جميع الوقائع .. أليس كذلك ؟

- ولم اختفت التذكرة ؟

- لأن وجودها سيدلنا على أقرب محطة إلى منزل الجاسوس .. ولهذا أخذها من جيب القاتل .

فقال شرلوك هولمز :

- بديع جدًا يا ليستراد .. بديع جدًا .. إن نظريتك متماسكة محبوكة .. ولكن إذا صحت هذه النظرية فمعنى ذلك أن القضية انتهت .. الخائن مات .. وتصميمات الغواصة انتقلت إلى الدول الأجنبية .. فأى داع للاهتمام بعد ذلك ؟ وأى عمل يبقى أمامنا ؟

فصاح مايكروفت وقد نهض واقفًا :

- يبقى أمامك أن تعمل يا شرلوك .. إن قلبى يحدثنى بأن هذه النظرية غير سديدة .. ولا نصيب لها من الواقع .. فهيا استخدم مواهبك .. اذهب إلى مكان الجريمة .. قابل كل من له صلة بالحادث .. استجوب هذا .. واستجوب ذاك .. ولا تدع ركنًا إلا فتشت فيه .. ولا حجرًا إلا قلبته .. ونبشت تحته .. تلك يا شرلوك فرصة سانحة لخدمة بلادك .. فلا تتردد فى انتهازها .

فهز شرلوك هولمز كتفيه .. وقال :

- حسنًا .. هذه خطبة بليغة .. هيا بنا يا واطسن .. وأنت أيضًا يا ليستراد . سنذهب الآن إلى « محطة أولد جيت » لندرس المكان عن كثب .. إلى اللقاء يا مايكروفت .. سأبعث إليك بتقريرى قبل المساء .. ولكن ينبغى أن تدرك من الآن بأنه لن يشفى لك غليلاً .

الفصل الثالث

تحريات ومفاجآت

لم تكد تمضى على هذا الحديث ساعة تقريبًا حتى كنت أنت وليستراد وهولمز نقف على خطوط السكك الحديدية التى تجرى تحت الأرض .. عند نقطة خروجها من النفق .. قبيل « محطة أولد جيت » مباشرة .

وكان فى رفقتنا مندوب من طرف السكة الحديد .

« « «

قال المندوب مشيرًا إلى مكان يبعد ثلاثة أقدام عن الخط :

- هنا كانت الجثة .. ويستحيل أن تكون قد وقعت من أعلى .. فإن الجدران شاهقة .. لا منفذ فيها .. وليس ثمة مكان للمرور فوقها .. فلابد إذن أن يكون القتيل قد سقط من القطار .. وهذا القطار - طبقًا لما لدينا من المعلومات - لابد أن يكون قد مر بهذه النقطة حوالى منتصف الليل من مساء الإثنين .

فقال شرلوك هولمز يسأله :

- هل فحصتم المركبات للتأكد من أنه لم يرتكب فيها أى عمل يقترن بالعنف .. أو سفك الدماء ؟

فأجاب مندوب شركة السكة الحديد :

- فحصناها .. ولم نشتبه فى شىء .. ولم نعثر على التذكرة .

- ألم تعثروا على أحد الأبواب مفتوحًا ؟

- كلا .. كلا بالتأكيد .

فقال ليستراد :

- لدينا شهادة جديدة جاءتنا هذا الصباح .. فقد ذكر أحد المسافرين إلى « محطة أولد جيت » فى القطار القادم من العاصمة .. أنه سمع فى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين من مساء يوم الإثنين .. صوت اصطدام جسم ثقيل بالأرض .. شبيه بالصوت الذى ينشأ عن وقوع إنسان على الخطوط الحديدية .. وذلك قبل وصول القطار إلى المحطة .. وكان الضباب كثيفًا .. فلم يتبين شيئًا فى الظلام .. ولم يعلق على الأمر أهمية آنذاك .. ولكن ماذا جرى .. ماذا دهى مستر هولمز ؟

« « «

التفتُّ إلى هولمز .. فتملكتنى الدهشة بدورى .

كان واقفًا وعضلات وجهه متوترة .. تنم عن الانفعال .. وهو يحملق فى الخطوط الحديدية الممتدة خارج النفق .

وكان بصره مستقرًا على « مجمع الخطوط » فقد كانت « محطة أولد جيت » نقطة اتصال مركزية تتفرع عندها خطوط كثيرة إلى جميع الجهات .

وأدركت من توتر سحنته أنه وقع على أثر خطير .

« « «

تمتم هولمز أخيرًا .

مجمع خطوط .. مجمع خطوط .

فسأله المفتش ليستراد :

- وأى شىء فى ذلك .. ماذا تقصد ؟

- أظن أن « مجمعات الخطوط » ليست منتشرة فى هذه المنطقة .

- كلا بالطبع .
والخط منحن أيضًا .. حسنًا .. انحناء ومجمع خطوط .. ليت الأمر كذلك ؟!
فقال ليستراد فى لهفة :
- أى فكرة لديك يا مستر هولمز ؟ هل وقعت على أثر ؟
فأجاب هولمز فى شرود :
- مجرد فكرة .. مجرد وهم ليس إلا .. ولكن القضية بدأت تلذ لى .. إنها نافذة .. نادرة .. ولكن لم لا ؟ إنى لا أرى على الخط أثرًا للدماء .
فقال مندوب الشركة :
- الواقع أن آثار الدم كانت معدومة .
- ومع ذلك .. قيل لى إن القتيل كان مصابًا بجرح كبير .
- لقد تهشمت عظام الجمجمة .. ولكن لم تكن هناك أى إصابة خارجية .
فقال هولمز :
- ولكن هذا لا يمنع أن يتوقع المرء أن تنـزف الدماء .. هل يمكننى أن أفحص القطار الذى كان فيه المسافر الذى شهد بسماعه صدمة جسم على الخط الحديدى ؟
فأجاب مندوب الشركة :
- أخشى أن يكون هذا متعذرًا يا مستر هولمز.. فقد فصلوا المركبات من القطار عن بعضها البعض .
وقال المفتش ليستراد :
- أستطيع أن أؤكد لك يا مستر هولمز أنى فحصت جميع المركبات بعناية تامة .. وقمت بهذا العمل بنفسى .
وكان من عادة صديقى شرلوك هولمز أنه سريع التبرم بغباوة من يزعمون أنفسهم أذكياء .. نابغين .. فقال على الفور:
- يجوز .. يجوز .. ولكن المركبات التى أريد فحصها هى غير المركبات التى فحصتها أنت .
ثم تحول نحوى وقال :
- لقد انتهى بحثنا هنا يا واطسن .. فهيا بنا .. ولن نزعجك بعد ذلك يا مستر ليستراد .. أما الآن فسوف أذهب إلى (ولويتش) لمتابعة البحث .

« « «

حين بلغنا « محطة جسر لندن » أرسل هولمز برقية إلى أخيه مايكروفت أطلعنى عليها .
وكان هذا نصها :
« لاح لى قبس فى الظلام .. ولكنه قد يخبو .. أرجوك أن ترسل مع رسول خاص إلى منـزلى بشارع بيكر .. قائمة كاملة بأسماء الجواسيس الأجانب الموجودين فى إنجلترا مع عناوينهم » .
« شرلوك هولمز »

« « «

وقال هولمز يحدثنى وقد استوينا على مقاعدنا فى القطار المسافر بنا إلى (ولويتش) :
- ستفيدنا هذه القائمة يا واطسن فائدة جليلة .. والواقع إنى مدين لأخى مايكروفت .. فقد مهد لنا السبيل إلى هذه القضية الفذة .. الشائقة .

« « «

كان وجهه ينم عن شدة الاهتمام .. والنشاط الجارف وكانت عيناه تدلان على أنه وقع على ظروف جديدة .. مهدت أمامه ميدانًا جديدًا للبحث .

وخيل إلى .. وأنا أنظر إليه .. أنى أرى كلبًا من كلاب الصيد انتصب على قوامه .. ورفع أذنيه .. وتهيأ للوثوب فى إثر الفريسة .

لقد كان هولمز .. فى تلك اللحظة .. متحفزًا للنضال .. فلو أن شخصًا رآه .. لأنكر أنه الرجل الذى كان فى غرفته صباحًا .. قلقًا منزعجًا .. يشكو الركود .. والخمول .

« « «

واستطرد هولمز قائلاً :

- عندى الآن ما أركن إليه فى أبحاثى .. ويؤسفنى أن (غباوتى) فوتت علىَّ إدراك جميع الاحتمالات الممكنة للأمر قبل ذلك .

فقلت معقبًا :

- ولكن الأمر .. مع هذا .. لا يزال يبدو فى نظرى غامضًا .. مبهما .

ففكر لحظة .. ثم قال .

- إن النهاية لا تزال .. فى عينى أنا أيضًا .. يكتنفها الظلام الدامس .. ولكن وفقت إلى فكرة أعتقد أنها ستنتهى بى إلى الحقيقة المنشودة .. لقد مات كادوجان وست فى مكان آخر .. ثم وضعت جثته فوق سطح إحدى المركبات .

وهتفت فى دهشة :

- فوق سطح إحدى المركبات ؟! ماذا تقول يا هولمز ؟

فابتسم .. واسترسل يقول موضحًا فكرته :

أليست فكرة بديعة ؟ تدبر معى الوقائع التى لدينا :

أهى مجرد صدفة أن تكون الجثة فى نفس النقطة التى يهتز بها القطار .. ويتأرجح عند « مجمع الخطوط الحديدية » ..

وعند انعطاف المنحنى ؟

أليست هذه النقطة هى المكان الذى ينتظر أن يقع عنده أى شىء يوضع على سطح المركبة التى يسحبها القطار ؟

وهناك مسألة أخرى .. مسألة الدم . لقد عرفنا أنه لم تكن على الخط الحديدى آثار دماء .. فمعنى هذا أن الدماء التى نزفت من الجراح إنما نزفت فى مكان آخر .

إذن .. لو جمعت بين هاتين الواقعتين كان لك أن تستنتج منهما ما يؤيد النظرية التى أفترضها .

قلت له فى حماس وانفعال :

- واختفاء التذكرة من العوامل التى تؤيد نظريتك أيضًا .. فقد اختفت لا لأنها سرقت أو سقطت .. وإنما لأن القتيل لم يستقل القطار منذ مبدأ الأمر .

فقال هولمز مؤمنًا على كلامى :

- تمامًا يا واطسن .. لقد عجزنا فى البداية عن تعليل اختفاء التذكرة .. أما الآن فنظريتى هى التعليل البسيط .. المعقول .. وجميع الوقائع تتوافق .. وتنسجم معه .

فقلت متسائلاً :

- ولكن إذا صحت هذه النظرية فما زال اللغز غامضًا إذ لم تصل بعد إلى إماطة اللثام عن السر فى موته .. ويخيل إلى أن المسألة زادت تعقيدًا .

فتمتم هولمز وهو غارق فى التفكير :
- ربما ... ربما
ثم لزم الصمت .. واعتمد رأسه على راحة يده .. ولم يتكلم حتى بلغ القطار « محطة ولويتش » .. فاستدعى مركبة .. وأخرج من جيبه الورقة التى دون عليها مايكروفت هولمز البيانات المختلفة التى جمعها .. ثم قال لى :
- سنقوم بزيارات قليلة .. فهل أنت على استعداد لمرافقتى ؟
سيكون سير جيمس بطبيعة الحال أول من نذهب إلى مقابلته .

« « «

وكان منزل الخبير الحربى الشهير مشرفًا على ضفاف نهر التايمز .. فلما بلغناه كان الضباب قد بدأ ينقشع عن الأرض ..
وخرج إلينا رئيس الخدم بعد أن قرعنا الجرس .. فسألناه عن سيده .. فأجابنا وفى وجهه إمارات الحزن .
- كم يؤسفنى يا سيدى أن أقول لك إن سير جيمس قد مات هذا الصباح !!

« « «

هتف هولمز فى دهشة :
- يا إلهى .. كيف مات ؟!
فقال رئيس الخدم :
- تفضلا بالدخول .. إن أخاه الكولونيل فالنتين موجود .. ويمكنكما مقابلته ... والتحدث إليه .
فغمغم شرلوك هولمز فى صوت خافت :
- نعم ... نعم .. هذا خير ما ينبغى أن نفعل فى مثل هذه الظروف .

« « «

وقادنا رئيس الخدم إلى قاعة الاستقبال ..
وبعد لحظات دخل علينا كهل .. طويل القامة .. وسيم الوجه .. ذو لحية صغيرة .. يدل مظهره على أنه بلغ الخمسين من العمر .. وكان فى شعره المشوش .. ووجنتيه المبللتين .. وعينيه الحمراوين .. ما ينبئ بما تركت فى نفسه هذه الصدمة الأليمة .. الفجائية التى تلقاها بموت أخيه .
وحين تكلم كان صوته ناطقًا بالحزن .. نابضًا بالأسى .. قال يخاطبنا وهو مطرق الرأس :
- لقد مات بسبب هذه الفضيحة الشنيعة .. إن أخى سير جيمس رجل شديد التمسك بالشرف والكرامة .. وما كان ليحتمل مثل هذا الحادث .. لقد سحق قلبه ما وقع .. كان دائمًا فخورًا .. مزهوًا بمكتبه .. وبما استحدثه فيه من نظام جديد .. دقيق .. فوقعت هذه الصدمة على رأسه وقوع الصاعقة .
فقال شرلوك هولمز بعد أن تمتم ببضع كلمات معزيًا :
- كنا نرجو أن يمدنا بمعلومات تميط اللثام عن هذا السر الغامض .. الغريب .
فقال الكولونيل فالنتين :
- أؤكد لك يا سيدى أن الأمر بالنسبة إليه كان لغزًا مستغلقًا شأنه بالنسبة إلينا .. ولقد أدى إلى البوليس بكل ما لديه من المعلومات .. ولم يكن لديه شك فى خيانة كادوجان وست .. ولكنه .. فيما عدا ذلك .. لم يكن يعلم من الأمر شيئًا.. ولا يدرى له تعليلاً ..
فنظر إليه هولمز وقال :

- أليس فى وسعك يا سيدى أن تلقى ضوءًا على ما حدث؟
فقال الرجل على الفور :
- الواقع إنى لا أعرف عن الحادث إلا ما قرأت أو سمعت .. ثم أردف على الفور قائلاً :
- إنى لا أحب يا مستر هولمز أن أبدو قليل المجاملة .. ولكنك تدرك بطبيعة الحال أنى فى غاية الانشغال الآن .. فرجائى إليك أن تبادر بإنهاء هذه الزيارة .

« « «

ولما احتوتنا المركبة قال هولمز :
- الحق أن هذا تطور جديد لم يكن منتظرًا .. وإنى أسائل نفسى الآن عما إذا كان سير جيمس قد مات ميتة طبيعية .. أو انتحر .. فإذا كان موته انتحارًا .. فهل يمكن أن يؤخذ هذا دليلاً على شعوره بتقصيره فى أداء واجبه ؟
ومع ذلك .. فيحسن بنا أن نرجئ جوانب هذه المسألة إلى فرصة أخرى .. والآن هيا بنا إلى منزل كادوجان وست .

« « «

وكان بيت الشاب التعس واقعًا فى ضواحى المدينة .. وتقيم فيه أمه المنكوبة .
وكانت المرأة العجوز على حال من الحزن والذبول استحال معها علينا أن ننتزع منها معلومات ذات شأن .
وكانت فى رفقتها فتاة شاحبة الوجه قدمت إلينا نفسها باسم الآنسة فيوليت وستبرى .. خطيبة الشاب القتيل .. وآخر شخص رآه ليلة الحادث المشئوم .

« « «

قالت الفتاة مخاطبة صديقى هولمز :
- أستطيع يا مستر هولمز أن أوضح لك الأمر .. وأؤكد لك أنه لم يغمض لى جفن منذ وقعت المأساة .. لقد كنت طيلة الليل والنهار فريسة للتفكير .. والخواطر المزعجة .
إن عهدى بآرثر أنه شهم .. وطنى .. ليس على الأرض من هو أشرف منه .. أو أشد إخلاصًا للوطن .. وإنى لموقنة أنه أهون عنده أن تبتر يده من أن يبيع سرًا اؤتمن عليه من أسرار الدولة .. إن توجيه التهمة إليه لا ينطوى على شىء من الإنصاف .. والذين عرفوه لا يكتمون إنكارهم .. واستنكارهم .
فقال شرلوك هولمز :
- ولكن ما رأيك يا آنسة وستبرى فى الحقائق الثابتة ؟
فأجابت فى صراحة :
- هذا صحيح .. والواقع أنى لا أستطيع تعليل الأمر !!
فعاد هولمز يسألها :
- هل كان فى حاجة إلى المال ؟
- كلا .. فمطالبه محدودة .. ومرتبه كاف .. ولقد ادخر بضع مئات من الجنيهات .. إذ كنا قد عقدنا العزم على الزواج فى رأس السنة الجديدة .
- ألم تلاحظى عليه يا آنسة وستبرى شيئًا من الاضطراب أو الانفعال ؟ إنى ألح عليك بأن تصارحينا القول .. ولا تكتمى أمرًا دوننا .

ألقى إليها صديقى بهذه الكلمات .. ولم يغب عن عينه النفاذة ما اعترى وجهها من التغيير حين وجه إليها سؤاله ..

واحمر وجه الفتاة وقالت فى شىء من التردد :

- حسنًا . سأصارحك القول .. ولا أخفى عنك شيئًا .

ثم أردفت بعد سكتة قصيرة :

- نعم .. لقد لاحظت عليه ما يدل على أن فى ذهنه شيئًا خفيًا يشغل باله .

فسألها هولمز فى اهتمام :

- ومتى كان ذلك ؟

- منذ أسبوع .. فقد كان يبدو .. على خلاف عادته .. قلقًا .. شارد الذهن .. وفى ذات مرة ألححت عليه بالسؤال .. فلم ينكر أن هناك شيئًا يزعجه .. وأن لهذا الشىء علاقة بعمله الرسمى .. وقال لى بالحرف الواحد :

« إن الأمر أخطر من أن أفضى به حتى إليك أنت » .

فسكت على مضض .. وعجزت عن أن أنتزع منه شيئًا .

فقال هولمز فى لهجة تدل على مزيد من الاهتمام :

- استمرى فى حديثك يا آنسة وستبرى .. استمرى حتى ولو تحدثت بما يمكن أن يتخذ دليلاً ضده .. فإننا على أية حال لا نستطيع أن نعلم ما يمكن أن يستنتج من هذه المعلومات .

واسترسلت الخطيبة التعسة فى حديثها قائلة :

- الواقع أنه ليس لدى ما أضيف على ما قلت أكثر من أنه لاح لى مرة أو مرتين أنه وشيك بأن يفضى إلى بما يكتم .. وفى ذات مساء حدثنى عن خطورة السر .. وأذكر أنه أشار فى إيجاز واقتضاب إلى أن الجواسيس الأجانب لن يترددوا فى دفع مبلغ جسيم لاقتناص هذا السر .

وتضاعف اهتمام هولمز فسألها بلهفة :

- هل هناك شىء آخر ؟

فأجابته وهى تحاول أن تتذكر نفس كلمات خطيبها :

- لقد قال إننا .. نحن الإنجليز .. قوم مهملون .. قليلو الحرص .. والحذر .. ومن السهل على أى خائن أن يسرق «رسوم التصميمات» .

- وهل كانت هذه الأحاديث العابرة حديثة العهد ؟

- نعم .. حديثة جدًا .

فسكت هولمز لحظة .. ثم قال :

- والآن حدثينا عن المساء الأخير .

فقالت فى شرود :

- اتفقنا على الذهاب إلى المسرح .. وكان الضباب كثيفًا إلى درجة تجعل ركوب المركبة لا نفع فيه .. فقررنا أن نتمشى .. ومررنا فى طريقنا بمكتب عمله .. وعلى حين فجأة تركنى .. وأسرع مبتعدًا عنى حتى توارى فى الضباب .

وصمتت الآنسة وستبرى لحظة .. فسألها هولمز :

- وهل انصرف دون أن يحدثك بكلمة واحدة ؟

فأجابت فى مرارة .. وأسى :

- لقد أطلى فى صدره آهة تدل على الدهشة والاستغراب .. ثم ابتعد .. وكان هذا هو كل شىء .. وقد وقفت فى مكانى أنتظر رجوعه .. ولكن بغير جدوى .. فعدت إلى دارى ..

وفى صباح اليوم التالى .. بعد أن فتح المكتب أبوابه .. أقبل رجال البوليس لاستجوابى .. وعند الظهر سمعت بالنبأ الأليم .

وصمتت الفتاة وقد فاض بها الألم .. ولم تلبث أن هتفت فى حرارة .. وانفعال :

- ليتك تستطيع يا مستر هولمز أن تنقذ شرفه .. لقد كان شديد التمسك بالشرف .. وإن كان قد مات .. فإننى لا أحب أن يموت شرفه معه .

فوعدها هولمز بأن يبذل قصارى جهده فى سبيل ذلك .. ثم التفت نحوى .. وقال لى : تعال يا واطسن فإننا سوف نتمم أبحاثنا فى مكان آخر .. يجب أن نزور المكتب الذى سرقت منه الأدوات .

« « «

وقال هولمز يحدثنى .. والمركبة منطلقة بنا :

- كان الموقف سيئًا بالنسبة إلى الشاب المسكين .. وما أفضت تحرياتنا إلا إلى زيادة موقفه حرجًا .. ومن الطبيعى وهو فى مثل هذه الظروف .. أن يكون فى حاجة إلى المال .

ويظهر أن الفكرة كانت مستقرة فى ذهنه .. مادام قد تحدث إلى خطيبته عن سهولة سرقة الأوراق .. وإمكان بيعها .. مسكين هذا الشاب .. إنه حقًا سيئ الحظ .

فقلت معترضًا :

- ولكن .. أليس للخلق أثر على تصرفات الإنسان .. لقد شهدوا له بالوطنية .. والأمانة .. والنـزاهة .. فهل يمكن أن يكون فى ذلك ما يبعد عنه الشبهات .. وما الذى يدعو إلى أن يبتعد فجأة عن خطيبته .. فينطلق إلى المكتب ليرتكب جريمته ؟

ففكر هولمز لحظة .. ثم قال :

- صدقت يا واطسن .. لا أنكر أن هناك بعض الاعتراضات .. ولكن الأمر مع هذا لا يزال غامضًا .. وأحسب أننا إزاء قضية من أغرب قضايا الجاسوسية !!

الفصل الرابع

حيرة وغموض

استقبلنا مستر سيدنى جونسون .. رئيس الكتبة باحترام شديد .. فإن بطاقة صديقى كانت كفيلة دائمًا بأن تحمل الناس على احترامنا .

« « «

وكان رئيس الكتبة كهلاً .. نحيف البنية .. يضع على عينيه نظارة سميكة .. ووجهه هزيل .. وحركاته عصبية تدل على أنه عانى من متاعب واضطرابات عصبية خلال الأيام القليلة الماضية.

« « «

وقال الرجل فى تأثر .. وانفعال :

- هذا أمر يؤسف له يا مستر هولمز .. يؤسف له جدًا .. هل سمعت بموت مديرنا ؟

فأجاب هولمز فى هدوء :

- إنى قادم الآن توًا من منزله .

فهتف الرجل :

- ليت شعرى .. أى نكبة حلت بنا .. مات مديرنا .. ومات كادوجان وست .. وسرقت الرسوم .. ومع ذلك .. حين أغلقنا أبواب المكتب بعد ظهر يوم الإثنين الماضى .. لم يخطر ببال أحد منا أن هذه النكبات وشيكة على الوقوع .. يا إلهى .. إن الأمر شديد .. والكوارث تجل عن العزاء .. وست يفعل ذلك دون الرجال أجمعين ؟!

فسأله هولمز :

- إذن .. أنت موقن من جرمه ؟

- وهل للمسألة وجه آخر غير هذا .. ألم يعثروا على الأوراق فى جيبه ؟ ومع ذلك فقد كنت أثق به كما أثق بنفسى .

- فى أى ساعة أغلقت أبواب المكتب فى يوم الإثنين ؟

- فى الساعة الخامسة .

- وهل أغلقتها بنفسك ؟

- إنى دائمًا آخر رجل يغادر البناء .

- وأين كانت الرسوم ؟

فى هذه الخزانة .. وأنا الذى أودعتها بنفسى .

- أليس لهذا البناء حارس يسهر على مراقبته ؟

- له حارس .. ولكنه يتولى الإشراف على الأبنية الأخرى المتصلة به .. وهو جندى قديم .. وأهل للثقة .. وقد قررت أنه لم يشاهد ما يلفت النظر .. أو يثير الريبة .. ولست أستغرب هذا .. فقد كان الضباب كثيفًا .

فقال شرلوك هولمز بعد لحظة من التفكير :

- لنفرض أن كادوجان وست أراد أن يدخل المكتب بعد انتهاء ساعات العمل .. فهو إذن فى حاجة إلى ثلاثة مفاتيح مصطنعة قبل أن يضع يده على الأوراق ؟

- نعم .. مفتاح للباب الخارجى .. ومفتاح لباب المكتب .. ومفتاح لهذه الخزانة .

- وهذه المفاتيح لا يحملها أحد سواك .. وسوى سير جيمس والتر .

- إنى لا أحمل مفاتيح الأبواب .. وإنما معى فقط مفتاح الخزانة .

ففكر هولمز مرة أخرى .. ثم استطرد يسأله :
- أخبرني .. هل السير جيمس رجل منتظم العادات يسير على نظام ثابت ؟
- أعتقد ذلك .. وأرجح أنه يعلق هذه المفاتيح الثلاثة فى حلقة واحدة .
- هل ذهب إلى لندن ومعه هذه الحلقة ؟
- لقد قرر ذلك قبل موته .
- ومفتاحك .. ألم يفارق جيبك ؟
- كلا بالتأكيد .
فقال شرلوك هولمز :
- معنى ذلك أن وست اصطنع مفاتيح مقلدة إذا كان هو الجانى .. ومع ذلك لم يعثر البوليس فى جيوبه على أى مفتاح .. ثم إن هناك مسألة أخرى : إذا كان فى هذا المكتب كاتب خائن يريد أن يبيع الرسوم.. أفليس الأولى به أن ينقل صورة منها بدلاً من أن يسرق الرسوم الأصلية .. فيعرض نفسه للخطر .. إن فى وسعه أن ينقل الصور يومًا بعد يوم دون أن يستريب أحد فى أمره .. أليس كذلك ؟
فأجاب رئيس الكتبة :
- إن نقل هذه الصور ليس من السهولة بالدرجة التى تتصورها يا مستر هولمز .. إذ يستحيل نقلها إلا على من كان ذا إلمام فنى بالعمل .
- ولكنى كنت أظن أن وست .. وسير جيمس .. وكذلك أنت .. على إلمام فنى كاف ؟
فهز مستر سيدنى جونسون كتفيه .. وقال :
- وما الداعى يا مستر هولمز إلى التعلق بهذه الفروض .. والأمر واضح .. لا يحتاج إلى دليل .. ألم يعثروا على الرسوم الأصلية فى جيوب وست ؟ أليس فى هذا الدليل الكافى على جرمه ؟
فقال هولمز :
- ولكنى .. مع هذا .. مازلت أستغرب إقدامه على سرقة الرسوم الأصلية .. وهو يستطيع - بحكم عمله - أن ينقل صورة منها .. وفى هذه الصورة كل المطلوب .. فضلاً عن أنها لا تعرضه للخطر .
فقال رئيس الكتبة مؤمنًا :
- إن الأمر يبدو غريبًا كما تقول .. ولكنه مع ذلك أقدم على سرقة الأوراق الأصلية .
فشرد هولمز بفكره لحظة ثم قال :
- إن كل خطوة نخطوها فى بحثنا تتكشف عن نقطة جديدة .. معقدة .. والآن .. فلننتقل إلى مسألة أخرى .. قيل إن هناك ثلاث أوراق ناقصة .. وقد فهمت أنها من أهم الأوراق الأصلية.
- هذا صحيح يا سيدى .
- هل لى أن أفهم من هذا أن فى وسع من تقع هذه «الأوراق الثلاث» فى يده أن يبنى الغواصة دون أن تكون لديه الأوراق الأخرى السبع ؟
فأجاب : هذا ما خطر لى فى أول الأمر .. ولكنى رجعت اليوم إلى الرسوم .. ودرستها من جديد .. فلاح لى أنى تسرعت فى إبداء هذا الرأى .. ذلك أن بين الأوراق التى استعدناها رسم خاص بالصمامات الأوتوماتيكية التى تتحرك من تلقاء نفسها .. وهو اختراع جديد لم يوفق إليه أحد غيرنا من العلماء بعد .. وبدونه يستحيل بناء غواصة صالحة للعمل .. وإن كان منتظرًا أن تذلل هذه العقبة فى وقت قصير .

- إذن .. فالرسوم الثلاثة الناقصة هى أكثر الرسوم أهمية .. وخطورة ؟
- هذا لا ريب فيه .
- حسنًا .. اسمح لى أن أتجول قليلاً فى البناء لأدرس موقعه .. ومساكنه .. وأحسبنى لست فى حاجة إلى أن أوجه إليك أسئلة أخرى .
- شكرًا لك يا سيدى .. تفضل من هنا .

« « «

فحص هولمز قفل الخزانة .. وباب الغرفة .. وأخيرًا المصاريع الحديدية للنافذة .. على أن الاهتمام لم يظهر على وجهه إلا حين هبطنا إلى الحديقة .. ونمت أساريره عن الانفعال الشديد .

كانت تحت النافذة شجيرات صغيرة .. مهصورة بعض أغصانها مما يدل على أنها أزيحت أو وطئت بالأقدام .. ففحصها هولمز فحصًا دقيقًا .. واستعان فى ذلك بعدسته المكبرة .. كما فحص آثارًا باهتة كانت بادية على الأرض .. عند الشجيرات .

ثم طلب إلى رئيس الكتبة أن يغلق المصاريع الحديدية للنافذة .. ولفت نظرى إلى أنها لا تنطبق من الوسط .. مما يجعل من السهل على من كان فى الخارج أن يرى ما يجرى فى الداخل من خلال الانفراج الذى بين المصراعين .

والتفت هولمز نحوى وقال :

- إن تأخر التحقيق ثلاثة أيام قد أفسد الآثار التى كانت موجودة .. وكان محتملاً أن نجد فى هذه الآثار ما يهون البحث .. كما كان محتملاً ألا نجد فيها شيئًا .. وأظن أنه ليس ثمة ما يدعونا إلى البقاء فى (ولويتش) .. إذ لن نجنى شيئًا من بحثنا هنا .. وما اكتشفناه حتى الآن أقل مما ينبغى .. فلنعد إلى (لندن) فقد نكون هناك أكثر توفيقًا .

« « «

وقبل أن نغادر « محطة ولويتش » تزودنا بمعلومات جديدة .. فقد أكد لنا قراض التذاكر الواقف بباب المحطة أنه رأى كادوجان وست - وله به معرفة وثيقة - فى مساء يوم إثنين وقد استقل القطار المسافر إلى (لندن) .. وكان وحده .. وقد ابتاع تذكرة فى الدرجة الثالثة .

وأنبأنا القراض أن اضطراب كادوجان لفت نظره .. وأثار فضوله .. فقد كان مرتعد اليدين إلى درجة عجز معها عن أن يتناول بقية نقوده .. فكانت القطع الفضية تفلت من بين أصابعه .. فجمعها القراض وهو دهش مذهول .. ودسها فى يد كادوجان وست !!

« « «

وبالرجوع إلى جدول مواعيد القطارات اتضح لنا أن قطار الثامنة والربع هو أول قطار يمكن أن يستقله وست بعد مغادرته خطيبته فى الساعة السابعة والنصف .

« « «

وبعد نصف ساعة صمت هولمز فى خلالها .. ولم ينطق بكلمة واحدة .. تحول نحوى فجأة وقال :

لنعد يا واطسن إلى ما لدينا من الحقائق .. يلوح لى أننا لم نصادف من قبل قضية أشد تعقيدًا من هذه القضية .. فما نكشف منها واقعة جديدة إلا انطوت على لغز جديد يستغلق على الأفهام .. وإن كان من المؤكد أننا قطعنا فى سبيل النجاح مرحلة كبيرة .. إن نتائج التحريات التى قمنا بها فى (ولويتش) تؤيد التهمة الموجودة ضد كادوجان وست .. ولكن الآثار التى تكشفت لى عند النافذة يمكن أن تكون أساسًا لفرض جديد فى صالحه .. فلنفرض مثلاً أن هناك جاسوسًا أجنبيًا اتصل به

.. وأغراه بسرقة الأوراق .. ولنفرض أنه نبذ هذا العرض الدنىء .. ورد الجاسوس خائبًا .. ولكنه لم يبلغ الأمر للبوليس إذ يحتمل أن يكون الجاسوس قد طلب منه الكتمان قبل أن يصارحه بغرضه .. فاضطر كادوجان وست إلى البر بقسمه .. فلم يكشف حقيقة الجاسوس لولاة الأمر .. ولعل هذا هو السبب فى أنه كتم الأمر حتى عن خطيبته .

والآن .. فلننتقل إلى الخطوة التالية ..

كان كادوجان وست ذاهبًا إلى المسرح فى رفقة خطيبته .. فمرا بالمكتب .. وفجأة .. لمح كادوجان الجاسوس الأجنبى متجهًا إلى المكتب .. متسترًا بالضباب ..

وكادوجان وست - كما علمنا - سريع الانفعال .. حاد الخلق .. فما إن رأى الجاسوس حتى حفزه الواجب إلى العمل السريع .. الحاسم .. فتبع الرجل .. واقترب من النافذة .. ونظر إلى داخل الغرفة من خلال الانفراج الذى بين المصراعين الحديديين .

ورأى الجاسوس وهو يسرق الوثائق .. فاقتفى خطواته .. وهذه النظرية تفند تفنيدًا كافيًا الاعتراض الذى سبق أن أبدناه .. وهو أن المعقول فى الأمر أن ينقل كادوجان وست صور الرسوم بدل من أن يسرق الأصول .. إذا كان هو السارق .. ومن هذا نفهم أن الأصول إنما سرقت ولم تنقل .. لأن السارق شخص آخر .. غير كادوجان وست .. شخص لا يتسع له الوقت لنقل الصور .

والمفروض فى هذه الحالة أن يكون أول عمل لكادوجان وست أن يثب على الجاسوس السارق .. وينقض عليه .. ويصرخ مستنجدًا .. ولكنه لم يفعل شيئًا من هذا .. وإنما اكتفى بأن يقتفى أثره فى صمت وسكون .. فلم فعل هذا ؟

يمكننا أن نقول جوابًا عن هذا السؤال إن من الجائز أن يكون السارق موظفًا أعلى مرتبة من كادوجان وأن نقول أن الموظف السارق استطاع أن يتوارى فى الضباب .. ويفلت من المراقبة .. فأسرع كادوجان إلى (لندن) ليسبقه إلى مسكنه .. وهذا طبعًا مع افتراض أنه يعرف مسكن السارق .

ومهما يكن من الأمر .. فإن الذى دعاه إلى هذا التصرف لابد أن يكون شيئًا خطيرًا .. وإلا لما ترك فتاته واقفة فى الضباب .. ولم يحاول أن يرجع إليها ليخطرها بأنه سيتركها .. وهنا تزداد المشكلة تعقيدًا .. فهناك فجوة كبيرة بين هذه الفروض .. وبين العثور على جثة كادوجان وست ملقاة على قضبان السكة الحديد .. وفى جيبه سبع أوراق من الرسوم .. أو بعبارة أخرى هناك فجوة كبيرة بين ذلك .. وبين وضع جثته فوق ظهر إحدى مركبات القطار .. فإذا كان مايكروفت قد زودنا بقائمة الجواسيس الأجانب المقيمين فى (لندن) .. فقد يمكننا أن نكتشف شخصية الجاسوس الذى سرق الأوراق .

« « «

وكانت القائمة المنشودة فى انتظارنا بمنزلنا فى «شارع بيكر» مع رسول خاص أوفده إلينا مايكروفت هولمز .. فألقى شرلوك نظرة سريعة على القائمة .. ثم قرأ علىَّ رسالة أخيه .. وهذا نصها : « فى القائمة أسماء كثيرة لا حصر لها .. ولكن الشطر الأكبر منها لصغار الجواسيس وأقلهم شأنًا .. وهذا عمل لا يقدم عليه إلا كبارهم .. ولهذا أتجه بريبتى إلى أدولف ماير بالمنزل رقم 13 بشارع جورج الكبير فى (وستمينستر) . ولويس لاروتيير بفيللا كامبدن فى (نوتينج هيل) .. وهيجو أو برستاين بالمنزل رقم 13 بحدائق كولفيلد فى (كنسنجتون) .. والثالث منهم كان

موجودًا فى (لندن) إلى يوم الإثنين الماضى .. ولكنه رحل طبقًا لما جاء فى تقارير رجال البوليس .

وإنه ليسرنى يا شرلوك أن يكون قد لاح لك قبس من الضوء فى هذا الظلام الدامس .. فإن رئيس الوزراء يترقب نتيجة أبحاثك فى لهفة وصبر نافد .. وقد أرسل جلالة الملك مندوبًا عنه للاستفسار عما أفضت إليه أبحاثك .. أو بعبارة أخرى يمكننى أن أقول لك إن جميع رجال الدولة يترقبون فى اهتمام نتيجة عملك ..

والحكومة تضع فى يدك كل السلطة التى تطلبها للوصول إلى الغاية المرجوة » .

« مايكروفت هولمز »

« « «

وابتسم شرلوك هولمز وقال :

- أخشى ألا تكون هناك أية فائدة فى هذه السلطة التى تريد الحكومة أن تضعها فى يدى .. لأن جميع قوات الجيش والبوليس لن تغنى عن الأمر شيئًا .

« « «

ونشر « خريطة لندن » فوق المنضدة .. وعكف عليها يدرسها .. ثم رفع رأسه وفى وجهه دلائل الارتياح .. وقال :

- إنك تعرف طبعًا .. يا عزيزى واطسن .. أن بعض الخطوط التى تجرى تحت الأرض تخرج من الأنفاق عند « مجمع الخطوط » فى الجهة الغربية من (لندن) .. وأذكر - وإن لم أكن متأكدًا - أنى رأيت أثناء سفرى .. نوافذ بيوت مطلة فوق القطار مباشرة .. فلنفرض إذن أن القطار وقف .. أو أبطأ فى السير تحت إحدى هذه النوافذ .. فلن يكون عسيرًا أن توضع الجثة فوق سطح المركبة .

فقلت له معترضًا :

- هذا تفسير بعيد الاحتمال .

وابتسم هولمز وقال لى موضحًا :

- هل تعلم يا عزيزى واطسن المثل القديم الذى يقول « إذا أخفقت جميع الحلول .. وأعوزتك التفسيرات المقنعة فخذ التفسير الوحيد الذى لديك .. وإن كان بعيد الاحتمال .. وثق أنه التفسير الصحيح » .. ذلك لأن قلة الاحتمالات ليس معناها أن الأمر مستحيل التفسير .. يضاف إلى هذا أن منـزل هيجو أوبرستاين يطل على شريط السكة الحديدية .. فهل يكون مستحيلاً أنه هو مرتكب هذه الجريمة ؟ .. وأن الجثة وضعت على سطح المركبة من إحدى النوافذ ؟

لقد استخفنى الطرب عندما اكتشفت ذلك .. ولعل أمرى يدهشك .. فهل عرفت السر الآن ؟

فهتفت قائلاً :

- إذن فهذا السر ؟!

فأجاب فى زهو :

- نعم يا صديقى .. ومنذ هذه اللحظة أصبح هيجو أوبرستاين هو ضالتى المنشودة وقد ذهبت إلى «محطة جلوشيستر» وبصحبتى أحد الموظفين .. وسرنا على الخط الحديدى.. فتأكدت أن نوافذ مبانى «حدائق كولفيلد» - حيث يقيم الجاسوس - تطل مباشرة على الخط الحديدى .. بل وعرفت أكثر من هذا .. عرفت أن قطارات الخطوط السفلية تقف عند هذه النوافذ بضع دقائق لإخلاء الطريق أمامها ريثما تمر القطارات الكبيرة التى قد تكون قادمة من أقصى البلاد .

- أحسنت يا هولمز .. أحسنت .

فقال فى صراحة :
- إلى حد ما يا واطسن .. إلى حد ما .. لقد تقدمنا كثيرًا ولكننا مازلنا بعيدين عن الهدف .
- حسنًا .. وماذا فعلت بعد ذلك ؟
- بعد أن فحصت الجهة الخلفية من المنزل .. عدت إلى مدخله .. فتأكدت أن الجاسوس فر هاربًا .. طبقًا لما جاء فى تقارير البوليس .. والمنزل كبير المساحة .. وغير مؤثث .. وأوبرستاين يقيم فى الطابق الأعلى منه .. مع خادم واحد .. يحتمل جدًا أن يكون شريكًا له .
وهناك مسألة أخرى جديرة بالاهتمام ياواطسن .. وهى أن أوبرستاين غادر (إنجلترا) ليبيع الرسوم دون أن تكون لديه أى فكرة عن أن أمره قد انكشف .. وأن البوليس قد زار مسكنه .. ولهذا سافر مطمئنًا دون أن تخالجه ذرة واحدة من الشك .
- ولكن ألا يمكننا أن نستصدر أمرًا بالقبض عليه ؟
- وهل لدينا دليل حاسم نبرر به استصدار هذا الأمر ؟
- إذن ما العمل ؟
- سنـزور مسكنه خلسة .. فقد نعثر على أوراق ومكاتبات مهمة يحتمل أن يكون الجاسوس قد تركها مكانها اطمئنانًا منه إلى أنه فوق مستوى الشبهات حتى الآن .. لا سيما أن فى نيته أن يعود ثانية إلى المنـزل مادام يشـعر بالأمان .. ولا يخشى شرًا .
فتمتمت أقول :
- اسمح لى يا هولمز أن أصارحك بأنى لا أميل إلى هذا السطو غير القانونى !!
فقال يطيب خاطرى :
- كن مطمئنًا يا صديقى .. إن مهمتك لن تعدو الوقوف فى الطريق للمراقبة .. أما أنا فسأقوم بارتكاب (الجريمة) .... والمسألة يا واطسن أخطر من أن نتعلق فيها بالرسميات .. تذكر رسالة أخى مايكروفت .. وزارة البحرية .. ورئيس الوزراء .. والملك الذى يترقب أنباءها باهتمام .. تذكر هؤلاء جميعًا .. تعلم أن ذهابنا لا مفر منه .
وكان جوابى على ذلك أن نهضت واقفًا وأنا أقول :
- أصبت يا هولمز .. لا مفر من ذهابنا .
فانبعث بدوره واقفًا .. وهز يدى فى حرارة .. وقال :
- كنت أعلم أنك لن تتخلى عنى .
ومرت لحظة خاطفة خيل إلى فيها أنى رأيت فى وجهه بادرة من بوادر الحنان والرقة .. وفى اللحظة التالية استعاد ثباته المعهود .. وألقى سترًا على ما خلجه من الضعف الإنسانى .
وأخيرًا قال لى :
- إن المنزل على مسافة نصف ميل من هذا المطعم .. ولكننا لسنا على عجل من أمرنا .. فلنذهب إليه سيرًا على الأقدام .. وإياك أن تتخلص من الأدوات التى فى جيبك فهى الدليل الوحيد على أنك لص .. والقبض عليك بهذه المهمة سيكون من حوادث التاريخ البارزة !!

» » »

كانت « مبانى حدائق كولفيلد » عبارة عن مجموعة من المنازل المشيدة على الطراز الفيكتورى .. وهى تقع فى الطرف الغربى الأقصى من مدينة لندن .
ولاح لنا أن فى المنـزل المجاور حفلة موسيقية للأطفال .. إذ كانت أصواتهم رفيعة .. حادة .. تنبعث من الداخل .. مصحوبة بعزف الموسيقى .. والضحكات الناعمة .. اللطيفة .

وكان الضباب لا يزال ناشرًا لواءه على المدينة .. فأشعل هولمز مصباحه الكهربائى .. وسلطه على الباب الضخم المتين .

والتفت هولمز نحوى قائلاً :

- إن المهمة يا واطسن أشق مما كنت أتصور .. فالباب موصد بالقفل .. ومزود بمزلاج ضخم .. والرأى عندى أن نتخطى السياج إلى الحديقة .. فقد يكون الباب الداخلى أقل متانة من هذا الباب .. فهيا ساعدنى على الوثوب إلى الداخل .

« « «

واستقر هولمز فوق سطح السور .. ومد يديه فساعدنى على الصعود .. وما كدنا نثب إلى الداخل .. حتى سمعنا فى الخارج وقع خطوات شرطى يقترب من المكان .

ولما ابتعد وقع خطواته .. شرع هولمز يعالج الباب بالأدوات التى جئته بها ..

وبعد دقائق انفتح الباب.. فوثبنا إلى البهو المظلم .. ثم أغلقنا الباب خلفنا .

الفصل الخامس

بيت الجريمة

أرسل هولمز ضوء مصباحه فى أرجاء المكان حتى استقر على نافذة فى صدر البهو .. فهتف بى قائلاً :

- لا ريب أن هذه هى النافذة التى حدثتك عنها .

وما كاد هولمز يفتح النافذة حتى سمعنا دوى قطار يمر تحت النافذة .. ويبتلعه الظلام .

وكانت النافذة من الخارج ملوثة بهباب المداخن .. ولكن سطحها مع ذلك كان أقل سوادًا من بعض الجهات .. ولا أثر له فى جهات أخرى .

وقال هولمز يخاطبنى :

- هذه المواضع التى يقل فيها السواد هى التى وضعت الجثة فوقها .. ولكن ما هذا يا واطسن ؟ إنها آثار بقع من الدماء بلا منازع ..

وأومأ بإصبعه إلى بقعة باهتة اللون على سياج النافذة وقال :

- هذا دليل واضح يؤيد نظريتى .. فلنبق فى مكاننا هذا حتى يمر بنا أحد القطارات لنرى كيف تتم التجربة .

وما كنا فى حاجة إلى انتظار طويل إذ ما لبثنا أن سمعنا دوى القطار .. ورأيناه يخرج من فوهة النفق .. ثم يتباطأ فى سيره .. ويقف دفعة واحدة تحت النافذة مباشرة .

وكانت المسافة بين النافذة .. وسطح أقرب مركبة إلينا .. لا تزيد على أربعة أقدام .. فأغلق هولمز النافذة .. والتفت إلى قائلاً :

- ها أنت ذا يا واطسن قد رأيت كيف تحققت نظريتى .. فما رأيك ؟

- إنك أعجوبة يا هولمز .. ونبوغك لم يتجل من قبل كما تجلى اليوم .

فهز هولمز رأسه نافيًا .. وقال :

- لا أستطيع أن أجاريك فى رأيك هذا .. ففى اللحظة التى اعتقدت فيها أن الجثة وضعت على سطح المركبة كانت بقية الاستنتاجات منطقية واضحة .. ولم يخالجنى شك فى أن للجاسوس بيتًا يقع على الخطوط الحديدية مباشرة .. وما كنت فى حاجة إلا إلى الدليل المادى الذى يدعم نظريتى .

ثم تنهد .. وقال :

- إنى لا أستطيع أن أزعم أننا بلغنا من النجاح ما كنا نرجو .. إذ لا يزال الهدف الأكبر بعيدًا عنا .. ومازالت الصعوبات تعترض طريقنا .. ولكنى أرجو أن نجد فى البيت ما يمهد أمامنا سبيل البحث .

« « «

وهبطنا إلى الطابق الأول .. فألفينا أنفسنا فى قاعة للطعام لا تحتوى على ما يثير الاهتمام ..

ثم انتقلنا إلى الغرفة التالية .. وكانت مخدعًا للنوم .. فلم نجد فيها كسابقتها ما يلفت النظر .

أما الغرفة الثالثة فكانت ضالتنا المنشودة .. ولذا شرع هولمز بفحصها فحصًا دقيقًا .. منظمًا .

كانت أكوام الكتب .. وأكداس الورق .. متناثرة فى أرجائها وكان واضحًا أنها تستعمل بمثابة مكتب .

وأخذ هولمز يفتش أدراجها بعناية .. ويجوس خلالها محتويات الدولاب .. دون أن يعثر على ما يبدد التجهم الذى يعلو وجهه !!

« « «

وبعد ساعة كاملة من بحث دقيق قال صديقى :

- لقد عرف الخبيث كيف يمحو آثاره .. فلم يترك ما يؤيد التهمة ضده .. ولا شك أنه أعدم الرسائل المريبة .. أو حملها معه .. ومع ذلك فهذه هى فرصتنا الأخيرة .. فإن أفلتت منا كغيرها .. فلا رجاء لنا بعد ذلك .

وتناول صندوقًا صغيرًا يستعمل لحفظ النقود .. وكان موضوعًا على المكتب .. ففتحه بآلة خاصة .. فإذا هو محشو برزم من الأوراق .. حافلة بمجموعات مختلفة من الأرقام .. دون أن تكون هناك أى إشارة إلى نوعها .. أو الغاية منها .. وإن كانت ثمة عبارات قليلة توحى للذهن بأن لهذه الأرقام علاقة ببناء الغواصات مثل « ضغط الماء » .. و « الضغط على البوصة المربعة ».. إلى غير ذلك .

« « «

ونحى هولمز هذه الأوراق فى شىء من نفاد الصبر .. ثم تناول مظروفًا يحتوى على قصاصات من الصحف نثرها على المائدة .. وألقى عليها نظرة سريعة .. وعندئذ تبينت على الفور .. من أسارير وجهه .. أنه وقع على أثر جديد .. وأن رجاءه فى النجاح قد تضاعف .

وغمغم يقول :

- ما هذا يا واطسن ؟ خطابات متبادلة عن طريق الصحف .. إعلانات فى صحيفة « الديلى تلجراف » .. التواريخ غير ظاهرة .. ولكن السياق يدل على ترتيباتها .. وهذه هى الرسالة الأولى :

« أرجو أن أسمع نبأ جديدًا عاجلاً - قبلنا جميع الشروط - اكتب على العنوان الموجود فى البطاقة - بييرو » .

وهذه هى الرسالة التالية :

« وصفها صعب ومعقد وغير مفهوم - أتريد تقديرًا وافيًا - الثمن سيدفع إليك على الفور بمجرد تسليم البضاعة - بييرو ».

أما الرسالة الثالثة .. فهذا نصها :

« الأمر مستعجل جدًا - سأعدل عما أريد إذا لم تعجل بتنفيذ التعاقد - اضرب لى موعدًا فى رسالة تبعث بها - أنتظر إعلانًا بالموافقة على الموعد - بييرو » .

وأخيرًا الرسالة الآتية :

« مساء الإثنين بعد الثامنة - خبطتان على الباب - لن يكون هناك سوانا - لا داعى للخوف والريبة - الدفع نقدًا بمجرد تسليم البضاعة - بييرو » .

« « «

هتف شرلوك هولمز قائلاً :

- هذا سجل واف .. شامل .. يا واطسن - ليتنا نستطيع أن نكتشف شخصية « الرجل الآخر » الذى سيقوم بتسليم البضاعة .

وغرق برهة فى خواطره .. وهو ينقر بأصابعه على حافة المكتب .. ثم انبعث واقفًا وهو يقول :

- يخيل إلى أن الأمر ليس عسيرًا .. هيا بنا يا واطسن فليس لدينا ما نفعله فى هذا البيت .. فلنذهب إلى إدارة « صحيفة الديلى تلجراف » .. فهناك قد نستطيع أن نحقق ما نصبو إليه .. ونصل إلى ما نريد .

الفصل السادس

رسالة إلى الرجل الغامض

فى صباح اليوم التالى حضر مايكروفت هولمز .. والمفتش ليستراد إلى زيارتنا .. بناء على دعوة من شرلوك هولمز .

وقد قص هولمز عليهما ما كان من أمره فى اليوم السابق .. فهز ليستراد رأسه .. حين علم بسطونا على البيت .. ولم يلبث أن قال فى شىء من الحدة :

- إننا معشر رجال البوليس الرسميين لا نستطيع أن نقدم على هذه الأعمال .. فلا عجب يا مستر هولمز إذا استطعت أن تتفوق .. وتتغلب علينا .. وتصيب من المعلومات ما نقصر دونه .. ولكنى أخشى أن تسرف يومًا فى الاندفاع .. فتجد نفسك .. وصديقك الدكتور واطسن عرضة للمشاكل والمتاعب .

فضحك هولمز وقال :

- فى سبيل الوطن .. ولذة المغامرة تهون كل المتاعب .. أليس كذلك يا واطسن ؟ سنكون شهداء على مذبح الوطن .. ولكن ما رأيك فى هذا يا مايكروفت ؟

فهتف مايكروفت بصوته الجهورى :

- بديع يا شرلوك .. بديع جدًا .. ولكن هل فى وسعك أن تبلغ الغاية المرجوة ؟

فتناول هولمز صحيفة « الديلى تلجراف » الملقاة على المقعد .. وقال لمايكروفت :

- ألم تقرأ رسالة بييرو التى نشرها اليوم ؟

فصاح مايكروفت فى دهشة :

- ماذا ؟ رسالة أخرى ؟

- نعم .. وهذا نصها : « الليلة نفس الموعد ونفس المكان - خبطتان - الأمر خطير جدًا - سلامتك متعلقة فى كفة الميزان - بييرو » .

- عظيم جدًا .. (لو لبى صاحبنا هذه الدعوة لظفرنا به فى الحال) .

فابتسم هولمز وقال :

- إنى أنا الذى نشرت هذا فعلا لأوقعه فى الفخ .. فإذا استطعتما أن ترافقانى إلى « مبانى حدائق كولفيلد » فى الساعة الثامنة .. فقد تنكشف لنا من اللغز ناحية جديدة .

واتفقنا جميعًا على الذهاب معه .. وحددنا الموعد لذلك .

» » »

ولعل من أبرز مزايا شرلوك هولمز قدرته الفذة على طرح مشاغله .. وهمومه .. وصرف ذهنه إلى أى ناحية غير ناحية العمل .. حين يعتقد أن إدمان التفكير فى اللغز الذى لديه لن يؤدى إلى تقديم جديد .

» » »

وأذكر أنه أمضى سحابة ذلك النهار منهمكًا فى إتمام رسالة عن « تأثير الموسيقى على الحيوانات » .. وكيف أنها تخفف من حدة طبعها .. وتنشط من ذكائها !!

ولو أن شخصًا رآه وهو منهمك فى الكتابة لوقع فى روعه أنه ليس لدى هذا الرجل ما يشغله .. وأن الحكومة لم تضع على عاتقه عبء إنقاذ سر من أخطر أسرارها الحربية .

» » »

وفى نفس ذلك الوقت كنت أنا جالسًا أتعذب .. وأفكر فى جسامة المسئولية الواقعة على كواهلنا .. فالدولة كلها فى غاية الانزعاج .. وسرنا الحربى يكاد يتسرب إلى أعدائنا .

وكلما فكرت فى هذا .. تهدمت منى الأعصاب .. فكان مما رفه عنى أن انقضى النهار .. وحلت الساعة المنتظرة .

الفصل السابع

من القاتل ؟

التقى بنا مايكروفت هولمز .. والمفتش ليستراد فى حانة على طريق « جلوشستر » فى الموعد الذى ضربه لهما هولمز .

« « «

وفى تمام الساعة الثامنة مساءً كنا جميعًا جالسين فى قاعة المكتبة .. فى انتظار مجىء الرجل الذى سرق سر الغواصة .. وباعه إلى الجواسيس الأجانب .

« « «

ومرت ساعة .. أعقبتها ساعة أخرى .

وحين أرسلت ساعة الكنيسة إحدى عشرة دقة خيل إلينا أن كل دقة منها كانت معولاً يقوض رجاءنا وآمالنا .. وراح ليستراد ومايكروفت يتململان فى مقعديهما .. وينظران فى الساعة مرتين فى الدقيقة الواحدة !!

أما شرلوك هولمز .. فكان .. على النقيض من ذلك .. ساكنًا .. رابط الجأش .. وقد أغمض عينيه نصف إغماضة .. وإن كانت كل جارحة من جوارحه متوثبة .. متحفزة .

وفجأة رفع رأسه .. وأصغى .

وبعد لحظة همس إلينا :

- أخيرًا .. قد أتى .

وسمعنا وقع أقدام فى الخارج ..

ثم دقتين متتابعتين على الباب .

« « «

نهض هولمز واقفًا .. وأشار إلينا بالبقاء حيث كنا .

وكان البهو مضاء بنور خافت ..

وفتح هولمز الباب الخارجى ..

ودخل القادم المجهول ..

وأوصد هولمز الباب خلفه .. وتمتم قائلاً :

- تفضل بالدخول .

وفى اللحظة التالية كان القادم المجهول واقفًا أمامنا فى قاعة المكتبة .

وكان هولمز يسير خلفه فى خطوات خفيفة .

« « «

ما إن استقر بصر الرجل علينا حتى انطلقت من صدره صرخة فزع .. ودهشة بالغة .

واستدار يبغىالفرار ..

ولكن هولمز أمسك به .. وأعاده إلى الشرفة فى دفعة عنيفة .

وقبل أن يستعيد الرجل توازنه .. كان هولمز قد أغلق الباب .. وأسند ظهره .

وأدار الرجل فينا نظرة تنم عن الذعر .. وترنح قليلاً .. ثم سقط على الأرض غائبًا عن الوعى .

وحين وقع النور على وجهه رأينا أن الرجل ليس إلا الكولونيل فالنتين والتر !!

« « «

قال لى هولمز وهو يهز رأسه فى دهشة :

- يمكنك يا واطسن أن تضمن روايتك عنى أنى كنت غبيًا فى هذه المرة .. فقد كنت أتوقع أن يكون القادم شخصًا آخر .

فقال مايكروفت فى لهفة :

- ومن هذا الرجل ؟

- إنه الأخ الأصغر للمرحوم سير جيمس والتر « مدير قسم الغواصات » .. ها هو ذا قد بدأ يستفيق من إغمائه .. فدعوا أمر استجوابه لى .

« « «

وحملنا الرجل الغائب عن الوعى إلى الأريكة .

وبعد لحظات أفاق من إغمائه .

وانتصب جالسًا .. وفى وجهه ما ينبئ بأشد دلائل الفزع .. ثم مر بيده على جبينه .. كأنما ينكر ما ترى عيناه .

وأخيرًا قال متسائلاً :

- ولكن ما معنى هذا بحق السماء .. لقد جئت أزور مستر أوبرستاين .

فأجابه هولمز بقوله :

- لقد انكشف كل شىء يا كولونيل والتر .. ولست أستطيع أن أتصور كيف يقدم إنجليزى صميم على مثل هذه الفعلة .. ولكن يجب أن تعلم أننا لا نجهل شيئًا عن أمر المكاتبات التى دارت بينك .. وبين أوبرستاين .. فدعنى أشير عليك بأن تعترف اعترافًا كاملاً .. ففى هذا الاعتراف ما ينبئ على الأقل بأن الندم قد أدركك على ما فعلت .. فهناك بعض تفصيلات مازلنا نجهلها .. والأمر فى الإفضاء بها موكول إليك .

فتمتم الرجل متوجعًا .. متألمًا .. ودفن وجهه بين يديه .. فانتظرنا أن يتكلم .. ولكنه لبث صامتًا لا يقول شيئًا .

وأخيرًا تكلم شرلوك هولمز قائلاً :

- أستطيع أن أؤكد لك يا كولونيل والتر أننا على علم تام بكل شىء .. فنحن نعرف أنك كنت فى حاجة ماسة إلى المال .. وأنك أخذت غالبًا المفاتيح التى اؤتمن أخوك عليها فصنعت مثلها .. وأنك كاتبت أوبرستاين .. فكان يرسل ردوده إليك عن طريق الإعلان فى « الديلى تلجراف » .

ونعلم أيضًا أنك ذهبت إلى المكتب فى مساء الإثنين الماضى .. متسترًا بالضباب .. فلمحك كادوجان وست .. واقتفى أثرك .. ومن المحتمل أنه كان يرتاب فى أمرك من قبل .. أو رآك وأنت تسرق الوثائق .. ولكنه لم يستنجد بأحد .. إذ كان من المحتمل أنك لم تسرقها .. وأنك إنما أخذتها بأمر من أخيك لأنه فى حاجة إليها .

وبناء على ذلك تخلى كادوجان وست عن كل ما يشغله .. وانطلق فى أثرك .. تحت ستار الضباب .. حتى هذا البيت . وكأى وطنى مخلص لم يجد الشاب بدًا من الدخول وحينذاك لم تكتف يا كولونيل بارتكاب جريمة الخيانة فحسب .. وإنما لوثت يديك بدماء أيضًا .. وقتلت الشاب التعس .

« « «

هتف الكولونيل فى ذعر :

- إنى لم أقتله .. إنى لم أقتله .. أقسم أمام الله أنى لم أقتله .

فقال له هولمز فى صرامة :

- حدثنا إذن كيف لقى كادوجان وست حتفه قبل أن توضع جثته على سطح مركبة القطار .
فقال الكولونيل فى تخاذل وإعياء :
- سأحدثكم بكل شىء .. أقسم أنى سأفضى إليكم بكل ما أعلم .
« « «
وصمت الرجل لحظة ثم استطرد يقول :
- أعترف بأنى سرقت الأوراق كما قلت أنت تمامًا .. فقد كنت غارقًا فى الديون بسبب المضاربات .. وكنت فى حاجة إلى المال .. فعرض على أوبرستاين خمسة آلاف جنيه .. فقبلتها لأنقذ نفسى من الخراب .. ولكنى أقسم لكم أنى برىء من دماء هذا الشاب .
كان كادوجان وست يرتاب فى أمرى .. وقد اقتفى خطواتى كما ذكرت .. ولم أفطن للأمر إلا وأنا واقف عند الباب .. إذ كان الضباب كثيفًا .
وما إن فتح أوبرستاين الباب الباب حتى وثب إلينا الشاب من أحشاء الضباب .. وسألنا عما ننوى أن نفعل بالأوراق .
ودعاه أوبرستاين إلى الدخول ليجيبه عن سؤاله .. وما كاد الشاب يتقدم خطوات فى البهو حتى عاجله أوبرستاين بطعنه من مدية كان يخفيها فى ثيابه .
وكانت الطعنة قاتلة .
وقد لفظ أنفاسه الأخيرة بعد خمس دقائق على الأكثر .
« « «
ورحنا نتبادل الرأى فيما حدث ننشد طريقًا للخلاص من هذه الورطة الشائكة .
وهنا تذكر أوبرستاين أن القطارات تقف بضع دقائق تحت النافذة .. وأن من الممكن أن نطرحه على ظهر إحدى المركبات .. ولكن قبل أن ننفذ ما عقدنا عليه العزم فحص أوبرستاين الأوراق التى حملتها إليها .. وقال إن ثلاثًا منها ذات أهمية قصوى .. وإنه مضطر إلى الاحتفاظ بها .
قلت له معترضًا :
- هذا مستحيل .. لو أنك احتفظت بها .. لأثرت ضجة كبرى فى (ولويتش) .. فلا مناص من إعادتها إلى مكانها فى الخزانة .
فقال أوبرستاين :
- بل يجب أن أحتفظ بها لأنها تتضمن بيانات ورسومًا فنية لا يمكن نسخ صورة منها فى خلال هذا الوقت القصير .
فقلت فى شىء من الحزم والغضب :
- فى هذه الحالة يجب أن تعاد جميع الأوراق الليلة .
وفكر أوبرستاين برهة .. ثم أخبرنى أنه وفق إلى حل للمشكلة .
واستطرد موضحًا .
- سأحتفظ بالأوراق التى أبتغيها .. أما الأوراق السبع الأخرى .. فسوف نضعها فى جيب هذا الشاب .. فإذا ما عثروا عليها فى جيبه ظنوا أنه هو سارق الوثائق كلها .
وحبذت هذه الفكرة .. إذ كانت هى فى رأيى المخرج الوحيد للورطة التى أوقعت نفسى فيها .
« « «
وانتظرنا نصف ساعة عند النافذة .. حتى مر بنا أحد القطارات .. ووقف تحتها .

وكان الضباب كثيفًا .. لا تتبين فيه العين شيئًا .. فاستطعنا أن نضع جثة كادوجان وست على سطح المركبة دون أن يرانا أحد .

وانتهى الأمر فيما يتعلق بى .

« « «

قال شرلوك هولمز متسائلاً :

- أخوك ؟

فأجاب الكولونيل :

- لم يوجه إلى كلمة واحدة .. ولكنه فاجأنى مرة وأنا أعبث بمفاتيحه .. فداخله الشك فى أمرى .. وكانت هذه الريبة هى التى دفعته إلى الانتحار حتى لا يرى شرف الأسرة ممرغًا فى أوحال الفضيحة والعار .

« « «

وساد الحاضرين صمت قصير .

ثم تكلم مايكروفت هولمز .

قال فى نبرات رصينة .. هادئة :

- هل تريد أن تكفر عما فعلت .. ولو إلى حد ما ؟ قد يخفف هذا التكفير عنك شيئًا من عذاب الضمير .. وقد يفضى إلى تخفيف العقوبة عنك ؟

- أى تكفير تبتغى منى ؟

- أين ذهب أوبرستاين بالأوراق ؟

- لست أدرى .

- ألم ينبئك بعنوانه ؟

- أنبأنى بأن الرسائل التى ترسل باسمه إلى « فندق اللوفر » بباريس ستصله حتمًا .

فقال شرلوك هولمز :

- إذن ففى وسعك أن تكفر عما ارتكبت .

فهتف الكولونيل :

- إنى على استعداد لأن أفعل كل ما تطلبونه منى .. إننى أمقت هذا الرجل .. فهو السبب فى دمارى .. وتلويث شرفى .

فقال شرلوك هولمز .

- هاك ورقة وقلمًا .. فاجلس إلى هذا المكتب .. واكتب ما أمليه عليك .. وسجل على المظروف العنوان الذى سوف أذكره لك .. حسنًا جدًا .. إليك الرسالة :

« سيدى العزيز

بخصوص الصفقة التى عقدت بيننا أظنك قد لاحظت الآن أنه ينقصك عنصر جوهرى لا استغناء عنه .. وعندى ما يكمل هذا النقص .. وما يجعل الموضوع مستكملاً .. وافيًا .

وأظنك تدرك بطبيعة الحال أنى قد احتملت متاعب ومشقات عديدة .. ولهذا أريد أن تزودنى بخمسمائة جنيه أخرى على الفور .

وأنت تعلم أنى زيادة فى الاحتياط والتبصر لا أوافق على استلام المبلغ عن طريق البريد .. وإنما أصر على أن يكون الدفع نقدًا .

وكان بودى لو استطعت اللحاق بك إلى فرنسا .. ولكن سفرى فى الوقت الحاضر كفيل بإثارة الشكوك حولى .. ولا سيما وأنت تعلم أن أخى قد مات .

ولهذا سأكون فى انتظارك بقاعة التدخين فى (فندق شيرنج كروس) فى الساعة الثانية عشرة من يوم السبت القادم .

ولا تنس أخيرًا أنى لن أقبل الثمن إلا نقدًا .. نقودًا ذهبية أو أوراقًا مالية من فئة صغيرة » .

ولما فرغ شرلوك هولمز من إملاء هذه الرسالة على الكولونيل فالنتين والتر .. قال له :

- هذا يكفى .. وقع الرسالة الآن .. ولن يدهشنى أن تحمله هذه الرسالة على الحضور حالاً .

» » »

وصح ما توقعه هولمز .

كان أوبرستاين شديد التلهف إلى استكمال أعظم عمل من أعمال الجاسوسية قام به فى حياته .

فخف مسرعًا إلى الموعد المضروب .. ووقع فى الفخ .

وسيق من الفندق إلى السجن .. حيث أمضى فيه خمسة عشر عامًا .

» » »

وعثر البوليس فى حقيبته على الرسوم المسروقة وكان الشقى قد عرضها بالمزاد على بعض دول أوربا المعادية لإنجلترا .. وكانت الصفقة وشيكة على الانتهاء .

أما الكولونيل والتر فمات فى سجنه فى نهاية العام الثانى من المدة المحكوم بها عليه .

» » »

وعاد هولمز إلى إتمام رسالته المعهودة عن « تاريخ الموسيقى فى القرون الوسطى » .

واستطاع أن يفرغ منها .. وينشرها على الناس .. فلقيت من النقاد كل تقدير .

» » »

وبعد بضعة أسابيع دعى شرلوك هولمز إلى (قصر وندسور) .. حيث حظى بشرف لقاء الملك والملكة .

وعند خروجه من القصر شوهد يثبت ربطة عنقه بدبوس مرصع بماسة كبيرة .. نفيسة .

ولما سألته عن هذه الماسة .. وما إذا كان قد ابتاعها .. أجابنى قائلاً :

- ليست قيمة هذه الماسة يا عزيزى واطسن فى ثمنها .. وإنما فى أن يدًا ملكية .. رقيقة .. لمستها .. وثبتتها فى ربطة عنقى .. وثق يا عزيزى أنى سأظل طول حياتى أذكر هذه القضية بالزهو .. والفخار .. إذ كانت سببًا فيما ظفرت به من عطف ملكى كريم .

« تمـت »